

كتابي
٢٠
الجزء الثالث
البؤساء
فيكتور هي
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمي مراد



الجزء الثالث

البؤساء

فيكتور هيجو

ترجمة : د . نظمى لوقا

الكتاب السابع

قضية شانماتييه

الفصل الأول
الأخت سمبليس

لم تكن الأحداث التى سيطالعها القارئ معروفة كلها فى مدينة (م)، إلا أن القليل الذى تسرب منها ترك فى تلك المدينة أثراً كبيراً، بحيث يكون إغفال أدق تفصيلاتها ثغرة خطيرة فى هذا الكتاب .

وسيجد القارئ فى هذه التفصيلات ظرفين أو ثلاثة لا يكاد يصدقها العقل ، بيد أننا سنبقى عليها احتراماً للحقيقة .

بعد ظهر اليوم الذى زار فيه جافير المسيو مادلين ، توجه المسيو مادلين لزيارة فانتين كالعادة . وقبل الدخول إليها طلب رؤية الأخت سمبليس .

وكانت الراهبتان القائمتان على خدمة المستوصف سيدتين من رهبنة القديس لعازر ، شأن سائر راهبات الرحمة ، واسمهما الأخت بربيتى Perpetue والأخت سمبليس Simplice .

وكانت الأخت بربيتى فلاحة فيها خشونة الفلاحة ، دخلت خدمة الرب كما تدخل أى ريفية الخدمة فى مطبخ أحد البيوتات . وهذا النوع من الراهبات لم يكن نادراً ، فخدمة المرضى عندها وظيفة . والأخت بربيتى فلاحة قوية البنية ، تعامل المريضات بغلظة أقرب إلى الغضب والضيق بهن .

أما الأخت سمبليس فكانت بيضاء كالشمع ، منصرفة بكل كيانها إلى خدمة المرضى والرفق بهم فى تقوى حقيقية . ولم يكن أحد يعرف ما عمرها ، كأنها لم تكن شابة فى يوم من الأيام ، ولا يمكن أن تغدو عجوزاً فى مقبل الأيام . فيها طيبة مغلفة بالجد ، وتباعد أشبه بالفتور ، ولم تكذب فى حياتها كلها قط . كانت من شدة رهافتها تبدو هشة ، إلا أنها كانت أشد صلابة فى حقيقتها من الجرانيت . تلمس المريضات والمسكينات بأنامل دقيقة طاهرة ، وفى كلامها — كما يقولون — سكينة الصمت . لا تتفوه إلا بما هو ضرورى ، ولصوتها جرس ساحر . وتكتسى هذه الرهافة كلها بثوب من الصوف الخشن ، تحس فى ملمسه نداء السماء ونداء الرب . ونعود فنلح على أنها لم تنطق بالكذب أبداً ، ولم تتفوه قط — فى أتفه الأمور — إلا بالحقيقة المقدسة . وكان هذا هو الطابع المميز للأخت سمبليس وما تتمتع به من فضيلة . واشتهرت فى محيطها كله بهذه السمة الفريدة . ولا تعقل أن يوجد شىء اسمه الكذبة الصغيرة أو الكذبة البريئة . فالكذب فى نظرها هو حضيض الشر . هو وجه الشيطان نفسه . بل إن للشيطان اسمين : الشيطان والأكذوبة . هكذا كان اعتقادها . وكانت أفعالها العملية مصداق اعتقادها . ومن ثم أضفى هذا عليها ذلك البياض الشديد الذى يشع حتى من شفتيها ومن عينيها . فابتسامتها كانت بيضاء ، ونظرتها كانت بيضاء ، فلا وجود لنسيج عنكبوت ، ولا لذرة غبار على زجاج هذا الضمير . ولما دخلت سلك الرهبنة

اتخذت اسم سمبليس عن عمد وباختيارها الخاص . فالقديسة سمبليس الصقلية معروف عنها أنها فضلت أن ينتزعوا ثدييها على أن تجيب بأنها من مواليد بجسته Segeste مع أنها من مواليد سيراكوزا Syracuse !

وكانت عند دخولها سلك الرهبنة تعانى من عيبين تخلصت منهما شيئاً فشيئاً : وهما حب الحلوى ، وحب تلقى الرسائل . ولم تعد تطالع إلا كتاب صلوات مطبوعاً بحروف كبيرة وباللغة اللاتينية . ولم تكن تفهم اللاتينية ، إلا أنها كانت تفهم الكتاب !

وعطفت هذه الراهبة على فانتين ، ولعلها أحست ما فى أعماقها من فضيلة كامنة ، ولذا كادت تقف كل همتها — تقريباً — على تمريضها .

ولما حضرت الأخت سمبليس لمقابلة المسيو مادلين ، انتحى بها جانباً وأوصاها خيراً بفانتين بنبرة خاصة تذكرتها الأخت سمبليس فيما بعد .

وبعد أن غادر الراهبة ، اقترب من فانتين .

وكانت فانتين تنتظر ظهور المسيو مادلين كل يوم كما ينتظر المرء شعاعاً من الحرارة ومن الفرح والحبور . وكانت تقول للراهبتين :

— أنا لا أعيش إلا عندما يكون سيادة العمدة هنا .

وفى هذا اليوم كانت حرارتها مرتفعة جداً ، وما إن رأت المسيو مادلين حتى سألته :

— وكوزيت ؟

فأجابها وهو يبتسم :

— عما قريب .

وصنع المسيو مادلين مع فانتين كشأنه فى كل يوم ، وكل ما هناك أنه مكث معها ساعة كاملة بدلا من نصف الساعة . فسرت فانتين كثيراً . وأوصى الجميع بشدة ألا ينقص المريضة شيء . ولوحظ أن محياه اكفهر جداً فى إحدى اللحظات . ولكن اتضح لهم سبب ذلك عندما علموا أن الطبيب مال على أذنه وقال له :

— حالتها تسوء بشدة .

وذهب العمدة بعد ذلك إلى دار العمودية ، ورآه ساعى المكتب يفحص بانتباه خريطة لطرق فرنسا كانت معلقة على جدار مكتبه . وكتب عدة أرقام بالقلم الرصاص على ورقة .

* * *

الفصل الثانى
فطنة المعلم سكوفلير

ومن دار العمودية توجه المسيو مادلين إلى أقصى المدينة ، قاصداً الفلمنكى المتجنس بالجنسية الفرنسية ، المسمى المعلم سكوفلير Scaufflairte الذى يؤجر خيولا وعربات خفيفة تحت الطلب .

وأقصر طريق يؤدى إلى مكان سكوفلير هو سلوك شارع قليل الرواد ، يوجد به بيت الكاهن فى الأبروشية التى يقطنها المسيو مادلين . ويقال إن ذلك الكاهن رجل فاضل ومحترم حسن الرأى والمشورة .

وعندما وصل المسيو مادلين أمام بيت الكاهن ، لم يكن فى الشـــارع إلا مار واحد ، وقد لاحظ هذا المار أن المسيو مادلين بعـــد أن تجاوز بيت الكاهن وقف ، وظل جامداً فى مكانه ، ثم ارتد راجعاً إلى أن بلغ باب بيت الكاهن ، وكان باباً صلباً له مطرقة من الحديد ، ووضع يده بهمة على المطرقة ورفعها ، ثم جمدت حركته ثانية كأنه يفكر ، وبعد بضع ثوان ، بدلا من أن يتركها تهوى ، وضعها فى مكانها برفق ، ثم استأنف طريقه بشيء من السرعة أكثر من ذى قبل .

ووجد المسيو مادلين المعلم سكوفلير فى بيته مشتغلا بإصلاح لجام ، فسأله قائلا :

– يا معلم سكوفلير .. ألديك حصان جيد ؟

فقال الفلمنكى :

– يا سيادة العمدة ، كل خيولى جيدة . ما الذى تعنيه بحصان جيد ؟

– أعنى به حصاناً يمكنه أن يقطع عشرين فرسخاً فى يوم واحد .

فصاح الفلمنكى :

– يا للشيطان ! عشرين فرسخاً ؟

– نعم !

– وكم من الوقت سيستريح بعد هذه الرحلة ؟

– ينبغى أن يكون قادراً ، إذا لزم الأمر ، أن يستأنف السير فى اليوم التالى !

– ألكى يقطع نفس المسافة ؟

– أجل !

– يا للشيطان ! يا للشيطان ! ليقطع عشرين فرسخاً أخرى ؟

فأخرج المسيو مادلين من جيبه الورقة التى معه وعليها الأرقام بالقلم الرصاص ، وأراها للفلمنكى ، فإذا الأرقام ٥ + ٦ + ٨,٥ ؛ وقال :

– ها أنت ترى أن مجموعها تسعة عشر فرسخاً ونصفاً ، لنقل عشرين ..

فقال الفلمنكى :

– يا سيدى العمدة ، عندى طلبك . حصانى الأبيض الصغير ، ولابد أنك رأيته ماراً بك أحياناً . دابة صغيرة الحجم تتأجج ناراً . أراد صاحبه فى البداية أن يجعله حصان ركوب ، ولكنه جعل يرفس ويلقى بكل من يركبه على الأرض . وظن الرجل أن الحصان متمرد ، فاشتريته أنا ، وشددته إلى عربة خفيفة. وكان هذا ما يريده ، وصار سلس القياد كالفتاة الدمثة ، وإن كان يسابق الريح . فلا ينبغى أن تحاول امتطاء ظهره ، لأنه لا يروقه أن يكون جواد ركوب . ولكل فى الحياة طموحه . وطموحه الخاص أن يجر العربة . أما أن يمتطى فلا .

– ويستطيع قطع هذه الرحلة ؟

– العشرين فرسخاً ، بالركض السريع ، وفى أقل من ثمانى ساعات ، ولكن إليك الشروط .

– هات شروطك .

– أولا ، أن تدعه يستريح ويلتقط أنفاسه ساعة فى منتصف الطريق . ويتناول فى هذه الساعة علفه ، على أن تكون أمامه وهو يأكل كى تمنع صبى النزل من سرقة الشعير والشوفان ، فقد لاحظت على صبيان النزل هذه العادة الذميمة .

– سأكون هناك .

– وثانياً ... أهذه العربة الخفيفة سيركبها سيادة العمدة ؟

– نعم .

— وهل يعرف سيادة العمدة قيادة المركبات ؟

— نعم .

— عظيم. إذن ينبغى أن يسافر سيادة العمدة وحده وبلا حقائب حتى لا يثقل على الحصان .

— وهو كذلك .

— ولكن سيادة العمدة ما دام وحده سيراقب هو تقديم الشعير بنفسه .

— اتفقنا .

— أريد ثلاثين فرنكاً فى اليوم. وأيام الراحة يدفع عنها نفس الأجر . لا ينقص فلساً واحداً ، وطعام الدابة على نفقة سيادة العمدة .

فأخرج المسيو مادلين من كيسه ثلاثة جنيهات ، ووضعها على المنضدة وقال :

— هاك أجر يومين مقدماً .

— ورابعاً ، مثل هذه الرحلة ستكون العربة « الكبريوليه » أثقل مما يجب ومرهقة للحصان . لذا لابد لسيادة العمدة أن يوافق على القيام برحلته فى دوكار صغير خفيف موجود عندى .

— موافق .

— إنه خفيف ، ولكنه مكشوف ..

— هذا لا يهمنى .

— هل فكر سيادة العمدة فى أننا فى فصل الشتاء ؟

ولم يجبه المسيو مادلين ، فاستطرد الفلمنكى :

— وأن الجو بارد جداً ؟

ولاذ المسيو مادلين بالصمت .

وواصل المعلم سكوفلير حديثه :

— وأن المطر يمكن أن يهطل ؟

فرفع المسيو مادلين رأسه وقال :

— ينبغى أن يكون الدوكار والحصان أمام بابى غداً صباحاً فى الساعة الرابعة والنصف .

فأجابه سكوفلير :

— مفهوم يا سيادة العمدة .

ثم حك بظفر إبهامه لطخة فى خشب المنضدة ، وقال بتلك اللهجة غير المبالية التى يحسن الفلمنكيون مزجها بدهائهم :

— ولكنى لم أسمع من سيادة العمدة أين يزمع الذهاب ...

وكان هذا السؤال يشغل تفكيره منذ بداية الحديث ، ولكنه لا يدرى لماذا لم يتجاسر على توجيهه إلا الآن . فقال المسيو مادلين :

— هل قائمتا حصانك الأماميتان جيدتان ؟

— نعم يا سيادة العمدة ، ولكن عليك أن تسنده قليلا فى المنحدرات . أتوجد منحدرات كثيرة فى الطريق الذى ستسلكه ؟

فقال مسيو مادلين :

— لا تنس أن تكون أمام بابى فى الرابعة والنصف صــباحاً بالضبط :

ثم غادر المكان :

وظل الفلمنكى مشدوهاً لا يفقه شيئاً — على حد قوله — بعد ذلك برهة .

وكان سيادة العمدة قد خرج منذ دقيقتين أو ثلاث ، عنــدما انفتح الباب مرة أخرى ، وكان الداخل سيادة العمدة . ولم تزل عليه سيما انشغال البال ، وقال :

— يا مسيو سكوفلير ، بكم تقدر ثمن الدوكار والحصان اللذين ستؤجرنى إياهما ؟

— أيريد سيادة العمدة أن يشتريهما منى ؟

— كلا . ولكنى أريد ، فى جميع الأحوال ، أن تكون لــديك ضمانة كافية لها ، وعند عودتى ترد إلى المبلغ . فبكم تقدر الدوكار والحصان ؟

— بخمسمائة فرنك يا سيادة العمدة .

— هاك هى !

ووضع المسيو مادلين على المنضدة ورقة مالية ثم خرج : وفى هذه المرة لم يرجع إليه .

وندم المعلم سكوفلير على أنه لم يقل « ألف فرنك » .

ونادى المعلم سكوفلير زوجته ، وروى لهــا القصة . ثم قال :

— أين بحق الشيطان يريد سيادة العمدة أن يذهب ؟

وتشاوروا ، فقالت المرأة :

— إنه ذاهب إلى باريس .

وقال الزوج :

— لا أظن .

وكان المسيو مادلين قد نسى على المدفأة الورقة التى عليها الأرقام فتناولهــا الفلمنكى ودرسها :

— خمسة وستة وثمــانية ونصف ؟ لابد أن هذه مواضع محطات البريد .

والتفت إلى زوجته وقال :

— وجدتها !

— كيف ؟

— خمسة فراسخ من هنا إلى إيسدن Hesdin ، وستة فراسخ إيسدن إلى سان بول وثمانية ونصف من سان بول إلى أراس Arras إنه ذاهب إلى أراس !

* * *

وعاد المسيو مادلين إلى بيته . ولــكن لابد من أن يسلك أقصر الطرق فى عودته من محل المعلم سكوفلير . سلك أطول الطرق . كأنما باب بيت الكاهن يمثل إغراء يريد تجنبه . وصعد إلى حجرته الخاصة وأغلق بابها عليه . ولم يكن هذا مستغرباً ، لأن من عادته أن يأوى

إلى فراشه فى ساعة مبكرة . بيد أن بوابة المصنع ، وهى فى الوقت عينه خادمة المسيو مادلين الوحيدة لاحظت أن ضوءه انطفأ فى الساعة الثامنة والنصف ، وقالت هـذا للصراف عند عودته من الخـارج ، وأضافت إلى ذلك :

— هل سيادة العمدة مريض ؟ فقد وجدت سحنته غريبة .

وهذا الصراف يسكن حجرة تقع بالضبط تحت حجرة المسيو مادلين . ولم يعد الصراف ما قالته البوابة التفاتاً ، وأوى إلى فراشه ونام . ولكنه قرب منتصف الليل استيقظ فجأة ، فقد سمع وهـو نائم ضجة من فوق رأسه . وأصغى . إنه وقع خطى تغدو وتروح ، كما لو كان أحد يتمشى فى الحجرة العلوية . وأصاخ السمع بمزيد من الانتباه ، فعرف خطوات المسيو مادلين . وبدا له هذا غريباً . فقـد تعود ألا يصدر صـوت حركة من حجرة المسيو مادلين قبـل وقت يقظته . وبعد لحظة سمع الصراف صوتاً يشبه صوت صوان يفتـح ويقفل . ثم تحركت قطعة أثاث من موضعها ، وساد صمت . وبعـد ذلك عاد صوت المشى ، فوقف الصراف وقد استيقظ تمام اليقظة ، ونظر من خلال زجاج نافذته ، ولمح فوق الجدار المقابل انعكاساً محمر اللون لنافذة مضاءة . ومن اتجـاه الأشـعة ، كان مستحيلا أن تكون صادرة إلا عن نافذة حجرة المسيو مادلين . وكان الانعكاس يرتجف كأنمـا هو صادر من نار موقدة لا من مصباح . ولم تكن ظلال مربعات الزجاج مرتسمة ، مما يدل على أن النافذة مفتوحة على

سعتها . ونظراً للبرودة الشديدة فى هذه الليلة ، كانت هذه النـافذة المفتوحة مثيرة للدهشة .

وعاد الصراف للنوم . ولكنه استيقظ مرة أخرى بعد سـاعة أو ساعتين . فنفس الخطوات البطيئة المنتظمة كانت تغـدو وتروح دائماً فوق رأسه . وانعكاس الضوء لم يزل مرتسماً على الجدار ، بيد أنه صار الآن شاحباً هادئاً كأنه انعكاس مصباح أو شمعة . والنـافذة لم تزل مفتوحة .

وهاك ما كان يحدث فى حجرة المسيو مادلين .

* * *

الفصل الثالث
عاصفة فى جمجمة

لا شك فى أن القارئ قد خمن أن المسيو مادلين كان هو بعينه جان فلجان :

وقد سبق لنا أن ألقينا نظرة فى أعماق هذا الضمير . وقد حان الوقت لإلقاء نظرة أخرى . ونحن لا نلقى هذه النظرة بدون انفعال ، وبدون ارتجاف . فليس ثمة ما هو أدعى للرهبة والرعب من مثل هذا التمعن . وعين الفكر لا يمكن أن تجد فى أى مكان ما هو أحفل بالباهر والمعتم من أعماق الإنسان ، لأنها لا يمكن أن تستقر على شىء أرهب ، وأعقد وأشد غموضاً وأمعن فى اللاتناهى . ولئن كان هناك منظر أهول وأعظم من البحر ، فهو السماء . ولئن كان هناك منظر أهول وأعظم من السماء ، فهو دخيلة النفس .

فالسريرة هى أعوص متاهات الشهوات والمغريات ، وأتون الأحلام ، ومغارة الأفكار التى يخزى منها الإنسان . إنها ساحة حرب الأهواء . أنفذ فى ساعات معينة إلى ما وراء السحنة المكفهرة لكائن بشرى غارق فى الفكر ، وانظر إلى ما وراءها إلى أغوار هذه الظلمات تر تحت هذا الصمت الخارجى معارك الجبابرة كما رواها هومير ، ومعارك التنانين والأشباح كما رواها ملتن ، ولوالب الرؤى كما

رواها دانتى . ففى دخيلة كل إنسان ظلمة لا متناهية ، إليها يقيس إرادات عقله وأفعال حياته !

وذات يوم وجد دانتى نفسه أمام باب رهيب وقف أمامه متردداً . وها هو مثل هذا الباب أمامنا ، وها نحن نقف أيضاً أمامه مترددين . ولكن فلندخل !

ليس لدينا الكثير لنضيفه إلى ما يعرفه القارئ بالفعل عما حدث لجان فلجان منذ حادثته المنكودة مع الغلام الصغير « جرفيه » . وقد رأيناه منذ ذلك اليوم تغير وصار رجلا آخر ، حقق كل ما كان الأسقف أن يجعله منه . فكان هذا أكثر من تحول . كان انقلاباً !

ونجح فى الاختفاء ، وباع فضيات الأسقف ، غير محتفظ منها إلا بالشمعدانين ، ثم راح يتسلل من مدينة إلى مدينة ، فعبر فرنسا ، وجاء إلى مدينة « م » ، وخطرت له الفكرة التى ذكرناها ، وأنجز ما رويناه ، بحيث صار فى حرز حريز فى هذه المدينة ، سعيداً قرير العين لأن ضميره الذى يثقل عليه ماضيه فى الشطر الأول من حياته بيض صفحته شطرها الأخير ، فعاش فى سلام وأمان ، وليس له من هدف إلا إخفاء اسمه الحقيقى وتحويل حياته إلى هيكل للقداسة ، والهرب من الناس والعودة إلى الله .

وكانت هذه الأمانى شديدة الترابط والاندماج فى سريرته بحيث صار لها كيان واحد ، يسيطر على كل فكره وفعله . وهكذا صار رءوفاً متسامحاً بسيطاً محسناً . ولكن فى بعض الأحيان كانت هذه

الأمانى تتعارض وتتصارع . وعندئذ لم يكن الرجل الذى عرفته مدينة « م » باسم المسيو مادلين يتردد فى التضحية بأمنه فى سبيل فضيلته . ولذا وجدناه برغم كل ما أخذ به نفسه من أسباب الحيطة والحذر قد احتفظ بالشمعدانين تذكاراً للأسقف ، وارتدى عليه الحداد ، وراح يستدعى ويسأل كل الغلمان القادمين من السافوا ، وتحرى عن أسرات فرية فافيرول ، وأنقذ حياة الشيخ فوشليفان ، برغم تلميحات جافير وتعريضاته المقلقة . فقد كان يبدو أنه يعتقد كما كان يعتقد الحكماء والقديسون والأبرار الصالحون أن واجبه الأول لم يكن نحو ذاته .

ولكن ينبغى أن نقول : إنه لم يواجه قط مثل الصراع الذى يواجهه اليوم بكل هذه الضراوة . وقد فهم هذا بصورة غامضة ولكنها عميقة منذ الكلمات الأولى التى تفوه بها جافير حين دخل عليه مكتبه . فما إن نطق جافير ذلك الاسم الذى حرص على إخفائه فى أعمق طوايا الكتمان ، حتى تملكه الذهول ، وانتابته هزة غالبها وهى توشك أن تعلن عن نفسها ، وانحنى كما تنحنى البلوطة السامقة عند اقتراب العاصفة ، أو كما ينحنى الجندى عند اقتراب لحظة الهجوم . وأحس بغياهب حافلة بالصواعق والبوارق تكاد تنقض فوق رأسه :

وكان أول ما خامره وهو يصغى لكلام جافير أن يمضى ، بل يعدو عدواً ويبلغ عن نفسه لينقذ من السجن المؤبد شانماتييه ، ويحل

محله فيه . وكان ذلك أليماً موجعاً كأنه شق بالمبضع فى لحمه الحى . ثم لم يلبث أن مر هذا الخاطر وقال لنفسه :

— على رسلك ! على رسلك !

وكبح هذا الاتجاه الكريم وتقهقر ناكصاً على عقبيه أمام هـذه البطولة .

ولا مراء فى أنه كان شيئاً رائعاً ، بعد كلمات الأسقف القدسية ، وبعد كل هذه السنوات من الندم والتكفير وإنكار الذات ، أن يقدم هذا الرجل — ولو أمام هذه المحنة الرهيبة — غير هياب ولا متردد طرفة عين على مواصلة مسيرته بخطى ثابتة نحو هذه الهوة الفاغرة ، التى فى أغوارها فردوس السماء . كان هذا خليقاً أن يكون رائعاً جداً وآية فى الجمال ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث .

وينبغى أن نتعرف إلى الأمور التى كانت تجرى فى هذه النفس . فما كانت له الكلمة العليا أولا وقبل كل شىء هو غريزة حفظ الذات . فاستجمع شتات فكره بسرعة ، وخنق انفعالاته ، وراعى وجود جافير — هذا العدو اللدود — فأجل اتخاذ أى قرار فى المسألة بحزم أملاه الذعر ، واسترد هدوءه مثلما يسترد المصارع درعه بسرعة .

وظل سائر يومه على هذا الحال : فى داخله دوامة ، ومظهره هادئ أشد الهدوء . ولم يتخذ إلا ما يمكن تسميته « إجراءات احتياطية مؤقتة » . فكل شىء داخل رأسه لم يزل مشوشاً متضارباً ، إلى حد أنه لم يستطع أن يتبين أى فكرة بوضوح ، ولم يكن فى

استطاعته أن يقول شيئاً عن نفسه ، اللهم إلا أنه تلقى ضربة هائلة .

وكالعادة توجه إلى جوار فراش مرض فانتين ، وأطال زيارته مدفوعاً بغريزة الطيبة ، قائلا لنفسه : إنه ينبغى أن يتصرف على هذا النحو وأن يوصى بها الراهبتين ، تحوطاً لاحتمال غيابه . فقد كان يخامره خاطر غامض بأنه ربما تعين عليه التوجه إلى أراس .

ومن غير أن يستقر عزمه على القيام بهذه الرحلة ، قال لنفسه : إنه بمنجاة من كل ريبة ، وذلك لا يمنعه على كل حال من أن يذهب لمشاهدة ماعساه يجرى فى تلك المحاكمة . ولذا استأجر دوكارسكوفلير لكى يكون على أهبة الاستعداد لكل حادث .

وتناول عشاءه بشهية حسنة .

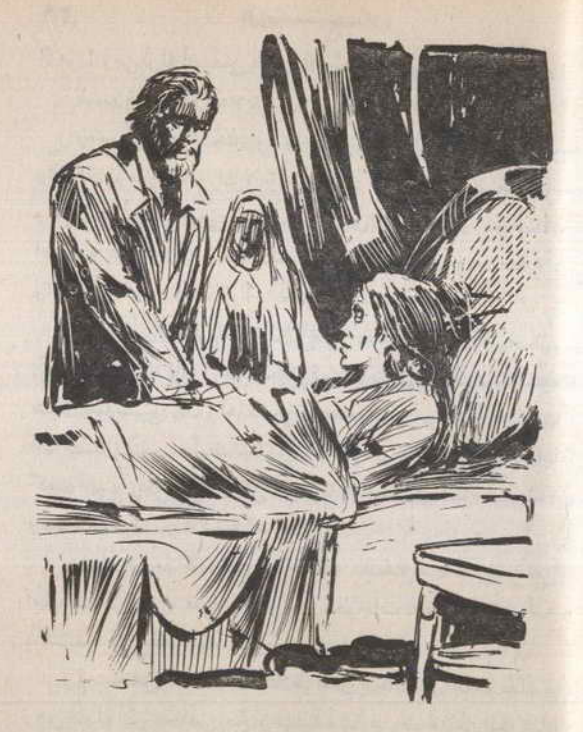
ولما عاد إلى حجرته استجمع نفسه .

وتمعن فى الموقف ، فوجده لا يطاق ، إلى حد أنه فى غمار شروده قام من مقعده ، بدافع من القلق الشديد الذى يكاد يفوق الوصف ويعز على التفسير ، وأغلق باب حجرته بالمزلاج . فقد كان يخشى أن يدخلها عليه شىء آخر ، فتترس متحصناً ضد الممكن .

وبعد برهة أطفأ ضوءه ، لأنه كان يضايقه . فقد خيل إليه أن أحداً يمكن أن يراه .

ومن عساه يكون هذا الأحد ؟

واأسفاه ! إن من أراد رده عن بابه كان قد دخل منه وانتهى



وكالعادة توجه إلى جوار فراش مرض فانتين ، وأطال زيارته مدفوعا بغريزة الطيبة ..

الأمر ! ومن أراد أن يعمى بصره عنه كان يحدق فيه ! إنه ضميره ! ضميره ، أى « الله » .

ومع هذا فقد خدعته أوهامه فى الوهلة الأولى ، فأحس الأمن والعزلة . وما إن دفع المزلاج حتى خال نفسه فى حصن حصين ؛ وما إن أطفأ الشمعة حتى شعر بأنه توارى عن الأبصار . وعنـدئذ استجمع شتات ذهنه وهدأ جأشه ، ووضع منكبيه على المنضدة ، واتكأ برأسه على يده ، وراح يفكر فى الظلام :

— إلى أين وصلت ؟ أترانى أحلم ؟ ماذا قيل لى ؟ أصحيح أننى رأيت جافير وأنه قال لى هذا الكلام؟ وماذا يمكن أن يكون شانماتييه هذا ؟ أهو يشبهنى إذن ؟ أهذا ممكن ؟ عندما أفكر أننى بالأمس كنت آمنا مطمئن النفس وأبعـد ما أكون عن التوجس من شىء ؟ ماذا كنت أصنع إذن أمس فى مثل هذه الساعة ؟ ماذا فى هذا الحـادث ؟ وكيف ستكون نهايته ؟ وما العمل ؟

وهـذا هو ما كان فيـه من عذاب . فذهنه كان قد عجز عن استيعاب الأفكار ، فصارت تمر به فى موجات ، فقبض على رأسه بكلتا يديه كى يستوقفها .

ولم يتمخض هذا الخضم المتلاطم الذى يتجاذب إرادته وعقله ، وهو يحاول أن يستخلص بينة أو قراراً ، إلا عن طوفان من الكرب .

وأحس برأسه يحترق ، فاتجه إلى النافذة وفتحها على سعتها ، ورأى السماء خالية من النجوم ، فعاد ليجلس قرب المنضدة .

ومرت الساعة الأولى على هذا النحو .

ورويداً رويداً بدأت خطوط غامضة ترتسم وتثبت فى مكانها ، فاستطـاع على هداها أن يلمح الواقـع بدقة ، لا فى مجموعه ، بل جوانب جزئية منه .

بدأ بإدراك أن هذا الموقف بالغاً ما بلغ من الشذوذ والحرج ، إلا أنه تحت سيطرته بالكامل .

وزاد هذا من ذهوله .

فبغض النظر عن الهدف الدينى الذى تتحراه أعماله ، كان كل ما فعله حتى هذا اليوم إن هو إلا حفرة حفرها كى يوارى فيها اسمه . فأخوف ما كان يخافه فى الساعات التى يخلو فيها بنفسه ، وفى ليـالى الأرق والسهاد ، أن يسمع أحداً على الإطلاق يتفوه بهذا الاسم ، وكان يقول لنفسه : إن ذلك سيكون نهاية كل شىء ، وإن ذلك اليوم الذى يعود فيه هذا الاسم للظهور هو اليوم الذى تنهار فيه حياته الجديدة التى بناها من حوله . ومن يدرى أيضاً أنه لن يكون يوم موت نفسه الجديدة ؟

وراح يرتجف من مجرد التفكير فى أن هذا يمكن أن يحدث . ويقيناً لو أن أحداً قال له فى هذه اللحظات : إنه ستأتى ساعة يرن فيها هذا الاسم فى أذنيه ، أو إن هذا اللفظ الكريه « جان فلجان » سيخرج بغتة من جوف الليل لينتصب أمامه ، أو إن هذا الضوء الرهيب الذى سيبدد السر الذى يحيط به سينقض فجأة على رأسه ، وإن هذا الاسم

لن يهدده بعد ذلك ، وإن هذا الضوء لن يتمخض إلا عن ظلمة أحلك ، وإن انقشاع القناع سيزيد السر خفاء ، وإن هذا الزلزال سيزيد صرحه رسوخاً ، ويجعل وجوده أوضح وأشد حصانة ، وإن مواجهته لشبح جان فلجان سيخرج منها البورجوازى الصالح المسيو مادلين المحترم أعز مكانة وأمناً من ذى قبل — لو أن أحداً قال له هذا لهز رأسه ونظر إلى هذه الأقوال وكأنها هذيان مخبول .

ولكن الله سبحانه كان قد قدر بعزيز قدرته وسامى حكمته أن هذه الترهات كلها ستكون واقعاً ملموساً ، فى الأوان المعلوم لعلام الغيوب وحده !

وواصلت أفكاره سبيلها إلى الوضوح . وازداد إدراكه لموقفه الراهن .

وبدا له كأنما قد استيقظ من نعاس لا يدرى كنهه ، وأنه يتزلق فوق منحدر فى جوف الليل ، وهو واقف يرتجف . وعبثاً يحاول التراجع وهو يجد نفسه على شفا هاوية ما لها من قرار . ولمح بوضوح ، وتميز فى جوف الظلام شخصاً مجهولا . شخصاً غريباً خالته المقادير أنه هو ، وراحت تدفع به إلى الهاوية بدلا منه . ولابد أن يتردى فى الهاوية أحد : إما هو أو ذلك الآخر المجهول .

ولن تكلفه النجاة إلا أن يدع المقادير تجرى فى أعنتها .

وعندئذ تمت له الرؤية الواضحة . واعترف لنفسه بأن مكانه فى تجديف سفن الأسطول فى الليمان كان شاغراً ينتظره ، وأن ما سرقه

من جرفيه الصغير يسوقه إلى هناك ، وأن مصيره إلى هناك قضاء مقدور ...

ثم قال لنفسه : إن له الآن بديلا ، ويبدو أن المدعو شانماتييه شاء سوء طالعه له هذا المصير ، وأنه سيكون فى الليمان فى شخص شانماتييه ، تحت اسم جان فلجان . وسيكون فى المجتمع تحت اسم المسيو مادلين . فلم يعد لديه ما يخشاه ، شريطة أن يختم الناس على رأس المسكين شانماتييه بخاتم العار ، الذى يشبه حجر القبر ، الذى متى استقر فى مكانه لم يرتفع بعد ذلك أبداً .

كل هذا كان بالغ العنف بالغ الغرابة ، فأحدث فيه ذلك الضرب من الهزة التى لا توصف ، الذى لا يعترى المرء إلا مرتين أو ثلاثاً فى حياته كلها . ضرب من تشنج الضمير الذى يحرك كل ما ينطوى عليه القلب من الشك والحيرة ، فهو مزيج من السخرية والحبور واليأس ، وفى وسعنا أن نسميه قهقهة باطنة .

وأشعل شمعته بحركة عصبية ، وقال لنفسه :

— ماذا إذن ؟ مم أخاف؟ ما الذى يدفعنى إلى مثل هذا التفكير؟ ها أنا ذا قد نجوت ! وانتهى كل شىء . فلم يكن هناك إلا باب موارب يمكن أن يقتحمه ماضىّ ليفسد على حياتى . وها هو هذا الباب وقد أضحى مسدوداً ، وإلى الأبد ! وجافير الذى يعكر صفوى ويقلقنى منذ وقت طويل بغريزته التى بدا أنها حدست حقيقتى ، بل إنها حدست حقيقتى فعلا ، وراحت تتعقبنى فى كل مكان ، وكأنه

كلب صيد مرهوب الجانب ، ها هوذا قد ضل طريقه ، وانشغل بغيرى إلى غير عودة ! وهو الآن راض مقتنع بأنه وضع يده على جان فلجان ! ومن يدرى ؟ لعله يصر على ترك المدينة ! وقد حدث كل هذا بغير تدخل منى ! ولا يد لى فيه ! وما الضير فى هـذا ؟ فإن من يرانى الآن يعتقد أنه حلت بى كارثة ! مع أنه إن كانت هناك مصيبة أصابت أحداً ، فليس هذا ذنبى . بل القدر هو الذى صنع هذا كله ! ويبدو أن هذه مشيئته ! فهل من حقى أن أنقض ما دبره القدر ؟ ما الذى أريده أو أبتغيه الآن ؟ وما الذى أهم أن أتدخل فيه؟ هذا أمر لا يعنينى ! كيف إذن أشعر بعدم الرضا ؟ ما الذى ينقصنى ؟

أما الغاية التى سعيت إليها منذ سنوات طوال ، وحلم ليالى ، وموضوع صلواتى إلى السماء ، وهو الأمان ، فها أنا ذا قد أدركته ! والله هو الذى أراد هذا . وليس لى أن أعترض على مشيئة الله . ولماذا يشاء الله هذا ؟ لكى أواصل وأكمل ما بدأته ، ولكى أصنع الخير ، وأغدو يوماً ما قدوة عظيمة تشجع الناس على الاقتداء بها ، ولكى يقال أخيراً إن ثمة بعض السعادة جزاء الكفارة التى قدمتها ، والفضيلة التى عدت إلى أحضانها ! الحق أننى لا أفهم لماذا اعترانى الخوف منذ قليل من الدخول إلى بيت ذلك الخورى الطيب كى أورى له كل شىء على هيئة اعتراف مصون السر ، ثم أسأله النصح . ولا أشك فى أن هذا كان عين ما سيقوله لى . ها قد انتهيت إلى قرار ! لنترك الأمـور تجرى فى أعنتها ! ولندع الله العلى القدير يصنع ما يشاء !

هكذا كان يقول لنفسه فى أعماق ضميره ، وهو منحن فوق حافة ما يمكن أن نسميه هاويته الخاصة . ونهض من كرسيه وراح يتمشى فى الحجرة ، وقال :

– هيا ! لندع التفكير فى هذا الأمر . هذا هو قرارى الأخير !

بيد أنه لم يشعر بأى سرور ، بل الأمر بالعكس !

وليس الإنسان بأقدر على منع عقله من العودة إلى فكرة ما ، منه على منع البحر من العودة إلى الارتطام بالشاطئ ، وهذه العودة عند المذنب تسمى الندم ، لأن الله يحرك النفس على نحو ما يحرك المحيط .

فبعد لحظات قليلة إذا به يستأنف هذا الحوار الكئيب الذى كان فيه هو المتكلم ، وهو هو السامع ، وراح يقول لنفسه ما كان قد قرر الصمت عنه ، ويسمع ما لم يكن يريد أن يسمع ، مذعناً لتلك القوة الخفية التى تقول له : « فكر ! » ، مثلما قالت منذ ألفى سنة لمذنب آخر : امش !

وقبل أن نمضى فى السياق إلى أبعد من هـذا ، ولكى يكون ما نكتبه مفهوماً تمام الفهم ، نذكر هنا ملاحظة ضرورية .

من المؤكد أن الإنسان يكلم نفسه . وما من كائن مفكر لم يجرب هذا . بل ويمكننا القول : إن « الكلمة » ليس سراً عظيماً إلا حينما يمضى فى داخل الإنسان من فكره إلى ضميره ، وحينما يعود من

الضمير إلى الفكر . وبهذا المعنى دون سواه ينبغى فهم الكلمات التى
تتكرر كثيراً فى هـذا الفصل ، من قبيل « قال ، وقال لنفسـه ،
وصاح » . فالمرء يقول لنفسه ، ويصيح فى داخل نفسه ، من غـير
أن يهتك ذلك حجاب الصمت من حوله . ففينا جيشان هائل ، وكل
شىء فى داخلنا يتكلم فى هذه الحالة ما عدا الفم . وحقائق الروح وإن
لم تكن مرئية ولا ملموسة إلا أن هذا لا يمنع كونها حقائق .

وسأل نفسه : أين هو الآن من هذا الأمر ، وتساءل حول ذلك
القرار الذى اتخذه : واعترف لنفسه بأن كل ما رتبه فى ذهنه كان
فظيعاً . وأن « ترك الأمور تجرى فى أعنتها » وترك « المولى سبحانه
يفعل ما شاء » شىء رهيب . وأن ترك خطأ القدر والبشر يمضى إلى
ختامه ، من غير أن يمنعه ، إنما هو بمثابة مشاركة فيه بالتواطؤ
والصمت . أى أن عدم فعل شىء هو فى الحقيقة فعل كل شىء !
وذلك هو الحضيض الأسفل من النفاق ! وجريمة منحطة دنيئـة
خبيثة بشعة .

ولأول مرة منذ ثمانى سنوات شعر الرجل التعس بمرارة طعم
فكرة شريرة وعمل شرير ! وبصق هذه المرارة فى تقزز .

وواصل مساءلة نفسه فى قسوة عما عناه بقوله :

ـ لقد أدركت غايتى !

وصارح نفسه بأنه كانت لحياته غاية فعلا . ولكن ما هى هـذه
الغاية ؟ أهى إخفاء اسمه ؟ أهى خداع الشرطة ؟ ألأجل شىء بهـذه

الضـآلة صنع كل ما صنع ؟ ألم تكن له غاية أخرى ، هى الغـاية
العظيمة ، الغاية الحقيقية ؟ وهى ليست إنقاذ شخصه ، بل إنقاذ
روحه . وأن يعود شريفاً صالحاً . أن يكون باراً ! أولم يكن هذا على
الخصوص ، بل أولم يكن هذا دون سواه ، هو ما طمع إليه ،
وما أمره به الأسقف ؟

أكان مراده أن يغلق الباب فى وجه ماضيه ؟ ولكنه بالإقدام على
عمل دنىء لا يغلق هذا الباب ، بل يفتحه على مصراعيه ! ليغدون بهذا
العمل لصاً كما كان ، بل وأحط أنواع اللصوص ! لأنه بذلك يسلب
رجلا آخر وجوده ، وحياته ، وأمنه ومكانه تحت الشمس ! بل
إنه بذلك يصير قاتلا ! يقتل قتلا معنوياً رجلا بائساً ، ويحكم عليه
بالموت حياً ، فى ذلك القبر المفتوح على السماء، الذى يسمونه الليمان !
أما إن سلم نفسه ، وأنقذ هذا الرجل الذى وقع فى براثن غلطة فاجعة
بطريق المصادفة ، واسترد اسمه فعاد بمقتضى الواجب جان فلجان
نزيل الليمان ، فإنه بذلك يتم بعثه الروحى ، ويغلق إلى الأبد الجحيم
الذى خرج منه ! فعودته الظاهرية إليه إنما هى فى الواقع خروجه
منه ! وما فعل شيئاً إن لم يفعل هذا ! وكل حياته تمسى بلا جدوى،
وتذهب كفارته كلها هباء .

وأحس أن الأسقف قائم أمامه ، وأنه حى لم يطوه المـوت ،
يرمقه بإمعان . وأنه يرى العمدة مادلين بغيضاً إليه بكل فضائله ،
وأن السـجين نزيل الليمان جـان فلجان نقى طـاهر فى نظره خـليق

بالإعجاب . فالناس لا يرون منه إلا القناع ، أما الأسقف فيرى وجهه الحقيقى . فالناس يرون حياته ، أما الأسقف فيرى سريرته وضميره .

لابد إذن من الذهاب إلى « أراس » ، وتخليص جان فلجان المزيف ، والكشف عن جان فلجان الحقيقى ! وا أسفاه ! هذه هى التضحية الكبرى ، وهـذا هو أوجع الانتصارات وأبهظها ثمناً ، والخطوة الأخيرة التى عليه أن يخطوها ، ولا مفر منها !

يا للقدر الأليم ! الذى قضى عليه ألا يدخل من باب القـداسـة فى عينى الله ، إلا إذا دخل من باب الخزى والعار والمهانة فى أعـين الناس !

— ليكن ! لنتخذ هذا القرار ! ولنؤد واجبنا . ولننقذ هذا الرجل !

تفوه بهذه الكلمات فى صوت مرتفع ، من غير أن يفطن إلى أنه كان يتكلم بصوت عال .

وتناول دفاتر حساباته ، وراجعها ، وجعلها محكمة الانضباط . وقذف إلى النار برزمة من وثائق الديون التى له فى ذمة طائفة من التجار الصغار . وكتب رسالة ختم مظروفها وكتب عليه « إلى المسيو لافيت ، المصرفى بشارع أرتوا فى باريس » .

واسـتخرج من قمطر حافظـة بها طائفـة من الأوراق الماليـة ، وجواز السفر الذى كان قد استخدمه فى هذه السنة نفسها للتوجه إلى الانتخابات .

ومن كان يراه وهو يقوم بكل هذه الأعمال التى يمازجها كثير من التأمل الجاد ما كان ليشك فيما يخامره . فكل ما هناك أن شفتيه كانتا تتحركان أحياناً ، وفى لحظات أخرى كان يرفع رأسه ويثبت بصره فى نقطة ما من الجدار ، كأنما يوجد هناك شيء ما يريد أن يستوضحه أو يستنطقه .

وما إن فرغ من خطاب المسيو لافيت حتى وضعه فى جيبه ، شأنه شأن الحافظة وشرع فى السير .

ولم ينحرف فى شروده قط ، لأنه لم يزل يرى واجبه مكتوباً بوضوح بحروف مضيئة كانت تتوهج أمام عينيه ، وتتنقل مع بصره قائلة له :

— امض ! اكشف عن اسمك ! أبلغ عن نفسك !

وكان يرى أيضاً ، كأنمـا هما ماثلتان أمامه فى أشكال محسة ، تلك الفكرتين اللتين كانتا حتى ذلك الحين القاعدة المزدوجة لحياته : وهما إخفاء اسمه ، وتقديس روحه . ولأول مرة بدتا له الآن منفصلتين تماماً ، وتبين الفارق الذى يفصل فيما بينهما . وعرف أن إحدى هاتين الفكرتين كانت صالحة خيرة بالضرورة ، أما الأخرى فيمكن أن تغدو شريرة . والفكرة الصالحة تمثل الولاء والعبادة ، أما الشريرة فتمثل الشخصية . لأن أولاهما تقول : « الآخر » ، أما الأخرى فتقول « أنا » . ذلك أن الأولى آتية من النور ، أما الأخرى فآتية من الظلام . والفكرتان تقتتلان . وهو يرى بعينه اقتتالهما . وفيما هو يفكر

فيهما ، كانتا تكبران أمام عيني فكره ، حتى صارت لها الآن قامتان عملاقتان ، حتى خيل إليه أنه يرى إلاهة وعملاقة تتصارعان فى داخله ، وسط الوهج والظلمات .

وامتلأ رهبة ورعباً ، ولكن بدا له أن الفكرة الصالحة كتب لها النصر .

وأحس أنه وصل إلى المرحلة الأخرى الحاسمة من مراحل ضميره ومصيره ، وأن الأسقف صنع المرحلة الأولى من حياته الجديدة ، وأن شانماتييه هو صانع مرحلته الثانية . وها قد حلت بعد الأزمة الكبرى ، التجربة الكبرى .

ومع هذا عاودته الحمى رويداً رويداً بعد أن كانت قد خفت برهة . ومرت بخاطره ألف فكرة ، إلا أنها ظلت تدعم تصميمه .

فتارة قال لنفسه : إنه ربما كان يبالغ فى تناول المسألة ، وأن شانماتييه هذا لا أهمية له ، ثم إنه سبق أن سرق على كل حال .

ورد على نفسه قائلا :

— لئن كان هذا الرجل قد سرق بضع تفاحات ، فالعقوبة شهر من الحبس . وما أبعد الفارق بين هذا وبين الليمان وعقوبة التجديف فى سفن الأسطول ! ثم من يدرى ؟ أهو قد سرق حقاً ؟ وهل ثبت عليه هذا ؟ إن اسم جان فلجان هو الذى يرهقه ويقوم مقام الأدلة . أوليست هذه طريقة النيابة العامة الملكية عادة ؟ فهم يعتقدون أنه لص لأنهم يعرفون أنه نزيل الليمان من قبل .

وفى لحظة أخرى ، يخطر له أنهم — إذا ما أبلغ عنه نفسه — ربما قدروا له بطولة عمله هذا ، وقدروا له حياته الشريفة طيلة سبع سنوات ، وما صنعه لخير إقليمه ، فيعفون عنه .

بيد أن هذه الفكرة سرعان ما تبخرت ، وابتسم بمرارة ، وقد تذكر أن سرقة الأربعين صلدياً من « جرفيه الصغير » تجعل منه مجرماً عائداً ، وأن هذه الفعلة سوف تظهر حتماً ، ونصوص القانون صريحة حاسمة فى وجوب الحكم عليه عندئذ بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وأشاح بوجهه عن كل وهم ، وانفصل شيئاً فشيئاً عن الأرض ، وبحث عن العزاء والقوة فى مكان آخر . وقال : إنه ينبغى أن يؤدى واجبه ، ولعله بعد أدائه لا يكون أتعس مما كان حين راغ منه . وإنه لو ترك الأمور تجرى فى أعنتها ، وبقى فى مدينة « م » ، لصارت مكانته ، وسمعته الطيبة ، وأعماله الخيرية ، والإكبار والإجلال ، وصدقاته وثروته وشهرته وفضيلته مشوبة كلها بجريمة ، وأى مذاق فى هذه الحالة عساه يكون لكل هذه الأمور المقدسة المقترنة بهذا الإثم الكريه ؟ أما إن أقدم على تضحيته ، وعاد إلى الليمان ، والعمل الشاق ، وإلى العار بلا رحمة ، لاقترنت تضحيته بفكرة سماوية !

وقال لنفسه أخيراً إن ثمة ضرورة ، وإن مصيره هو هذا ، وإنه ليس من حقه أن يغير تدبيرات السماء ، وإنه ينبغى عليه فى جميع الأحوال أن يختار إما الفضيلة الخارجية أو البرانية والزراية الباطنة أو الجوانية ، وإما القداسة الجوانية والعار البرانى .

ولم تتخاذل شجاعته من جراء تقليب هذه الأفكار المحزنة ، ولكن ذهنه أصيب بالإنهاك . وبدأ يفكر برغمه فى أمور أخرى لا أهمية لها فى الموضوع .

وأخذت عروقه تدق فى صدغيه بعنف ، وهو لا يكف عن السير جيئة وذهاباً . ودقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل فى الكنيسة أولا ، ثم فى دار البلدية . وأحصى الدقات الاثنتى عشرة فى الساعتين ، وجعل يقارن بين صوت الناقوسين . وتذكر بهذه المناسبة أنه كان قد رأى قبل ذلك ببضعة أيام لدى تاجر أدوات حديدية ناقوساً قديماً للبيع ، منقوشاً عليه هذا الاسم : أنطوان ألبان دى رومنفيل .

وأحس البرد ، فأشعل ناراً صغيرة ، ولم يفكر فى إغلاق النافذة .

ومع هذا عاد إلى ذهوله ، واقتضى منه تذكر ما كان يفكر فيه قبل انطلاق دقات منتصف الليل جهداً كبيراً ، وأخيراً نجح فى التذكر ، وقال لنفسه :

– آه !.. لقد اتخذت قراراً بتسليم نفسى .

ثم فكر فجأة فى فانتين ، فقال :

– ويحى ! وتلك المرأة المسكينة !

وعندئذ انتابته أزمة جديدة .

وظهرت فى خواطره فجأة فانتين ، وكأنما هى شعاع ضوء غير متوقع ، حتى لقد خيل إليه أن مظهر كل شىء قد تغير من حوله ، فصاح :

– ولكنى حتى الآن لم أفكر إلا فى أمر نفسى ! ولم أتدبر إلا ما يصلح به شأنى ! وهل أصمت أم أفشى سرى ؟ هل أخفى شخصى أم أنقذ روحى ؟ هل أكون رجل حكم حقيراً فى الباطن محترماً فى الظاهر أم نزيل ليمان مزدرى فى الظاهر جليلا فى الباطن؟ وهذا كله لا علاقة له بأحد سواى ! ولكن رباه ! هذا كله من قبيل الأنانية ! وكلا الخيارين شكلان مختلفان للأنانية ، ولكنهما أنانية على كل حال ! فلماذا لا أفكر قليلا فى الآخرين ؟ إن القداسة الأولى هى التفكير فى الآخرين ! فلننظر فى المسألة فى هذا الضوء ! ولذا ماذا تكون نتيجة فحوى ونسيان شخصى ؟ ماذا يحدث إذا سلمت نفسى ؟ سيلقون القبض على ويطلقون سراح شانماتييه . سيزجون بى فى الليمان . ثم ماذا بعد ؟ ماذا يحدث عندئذ ها هنا ؟ آه ! ها هنا إقليم بأسره ، ومدينة ، ومصانع ، وصناعة ، وعمال ، ورجال ، ونساء ، وأجداد مسنون ، وأطفال ، وفقراء ! لقد أوجدت أنا هذا كله ، وأنا الذى أمده بالحياة . وحيثما تصاعد الدخان من مدخنة فأنا الذى أشعلت جذوة تلك النار ، وأنا الذى وضعت اللحم فى القدر . أنا الذى صنعت اليسر والرخاء ، ودورة الاقتصاد ، والثقة والائتمان ، ومن قبل لم يكن ثمة شىء ! أنا الذى أقمت وأحييت وأخصبت ، وأثريت الإقليم كله . فإن ذهبت أنا ، فارقت الروح هذا الكيان كله . وإذا ما تخليت عنه مات كل شىء . وهذه المرأة التى عانت كثيراً ، وحفل سقوطها بالفضل والنبل الروحى ، وكنت أنا الذى

تسببت – دون قصد – فى تعاستها ! وهذه الطفلة التى كنت أريد الذهاب لإحضارها ، وبذلك وعدت أمها ! أليست على واجبات أيضاً نحو هذه المرأة لإصلاح الخطأ الذى سببته لها ؟ فلو اختفيت ، ماذا سيحدث ؟ تموت الأم ، وتغدو الفتاة مضيعة ! هذا ما سيحدث إن أنا سلمت نفسى للقضاء . أما إن لم أسلم نفسى ؟ لنر ماذا يحدث عندئذ !

وتوقف قليلا . وانتابته لحظة تردد واعترته رجفة . إلا أن هذه اللحظة لم تستمر إلا قليلا ، وقال لنفسه بهدوء :

– ليكن ! سيذهب هذا الرجل إلى الليمان . هذا صحيح . ولكنه – وحق الشيطان – سارق ! وسأظل أنا هنا ، لأواصل أعمالى . وفى مدى عشر سنوات سأكون قد ربحت عشرة ملايين ، أنفقها فى الإقليم ، فأنا لا أحتفظ لنفسى بشىء . وما أعمله لا أعمله لأجل نفسى ! وبذلك يزداد رخاء الجميع ، وتنشط الصناعات وتتكاثر المصانع والمعامل ، وتسعد مئات الأسر وألوفها ! ويزداد العمران ، وتولد قرى حيث لم تكن توجد إلا ضيعات ، وتولد الضياع حيث لم يكن يوجد شىء ، وتختفى الفاقة ، وباختفاء الفاقة يختفى الفجور والبغاء والسرقة والقتل ، وكل الرذائل والجرائم ! وتربى هذه الأم المسكينة طفلتها ! ويمسى الإقليم كله غنياً شريفاً ! آه ! لكم كنت مخبولا ، سخيفاً ، متناقضاً ! فكيف إذن حدثتنى نفسى بإفشاء سرى ؟ ينبغى أن أتنبه جيداً ولا أتسرع . ماذا كنت أريد ؟ أكنت أريد

تسليم نفسى لأنه راقنى أن أكون عظيماً كريماً ؟ يا لها من حبكة مينو درامية ، بعد كل شىء ! وما هذا إلا لأننى لم أفكر إلا فى نفسى ، وفى نفسى فحسب ! ألكى أرفع عن كاهل لص عقاباً مبالغاً فيه ، ولكنه عادل فى جوهره ، أترك إقليماً بأسره يتعرض للدمار ؟ وأدع امرأة مسكينة تهلك فى المستشفى ! وأدع طفلة صغيرة تهلك على قارعة الطريق كالكلبة ! كم هذا فظيع ! ومن غير أن يتاح لهذه الطفلة أن تعرف أمها ! وهذا كله فى سبيل إنقاذ هذا الشيخ الوغد سارق التفاح الذى استحق ولا مراء الأشغال الشاقة جزاء جريمة أخرى ، بفرض أنه لم يقترف هذه السرقة ! يا لها من ترهات جميلة لإنقاذ مذنب واحد والتضحية بألوف الأبرياء ! لإنقاذ متشرد مسن لم تبق أمامه إلا بضع سنوات فى الحياة على الأكثر ، ولن يكون فى الليمان أتعس حالا فى كوخه أو وكره الحقير ، وفى سبيل هذا أضحى بسكان إقليم بأسره ، فيهم الأمهات والزوجات والأطفال ! إن كوزيت الصغيرة المسكينة ليس لها فى الدنيا سواى ، وما من شك أنها الآن زرقاء الجسم من شدة البرد فى مسكن آل تردييه الحقير ! ويا لهذين الزوجين من وغدين لابد من حمايتها منهما ! فكيف يمكن أن أنكص عن واجبى نحو كل هذه المخلوقات التعسة بأن أذهب لتسليم نفسى ؟! إنى بذلك أرتكب حماقة خرقاء ! ولنفرض أسوأ الفروض ! لنفرض أننى مقترف ذنباً فى هذا كله ، وأن ضميرى سوف يؤنبنى عليه يوماً ما . فإن تقبل هذا التأنيب فى سبيل خير

الآخرين لن يضير أحداً سواى، لأن هذا الذنب لا يحيق إلا بروحى، ثم إن هذا من قبيل التقوى والفضيلة .

ونهض وعاد للسير . وخيل إليه فى هذه المرة أنه وصل إلى الرضا والقناعة .

إن الماس لا يوجد إلا فى ظلمات الأرض . وكذلك الحقائق لا توجد إلا فى أعماق الفكر . وقد خيل إليه بعد أن نزل إلى هذه الأعماق ، أنه وجد أخيراً إحدى تلك الماسات ، ووجد حقيقة باهرة بعد طول عسعسة فى الدياجير ، وأنها صارت فى قبضة يده ، وانبهر بها وهو يتطلع إليها .

وفكر فى نفسه قائلا :

— أجل ! هذا صحيح ! إنى على حق . وهذا هو الحل . وينبغى التمسك بما توصلت إليه ، لقد قر قرارى . لندع الأمور تجرى فى أعنتها ! ولا ينبغى أن أتردد ، أو أتراجع ! وهذا فى مصلحة الجميع ، وليس فى مصلحتى . أنا مدلين ، وسأبقى مدلين ! والويل للمدعو جان فلجان ! إنه لم يعد أنا ! أنا لا أعرف هذا الرجل ، وهل يوجد فى هذه الساعة من يحمل هذا الاسم . وإن كان له وجود فليرتب أموره ! فهذا شىء لا يعنينى ! إنه اسم منكود طاف فى ظلام الليل ، فإن سقط على رأس مجهول ، فتعساً له !

وتطلع إلى نفسه فى المرآة الصغيرة التى كانت فوق المدفأة ، وقال :

— لقد هدأ بالى لأنى وصلت إلى قرار ! فأنا الآن غير ما كنت تماماً .

وسار بضع خطوات ثم توقف وقال :

— لا ينبغى التوقف أو التردد أمام أى من النتائج المترتبة على القرار الذى اتخذته . فلم تزل ثمة خيوط تربطنى بجان فلجان هذا ، وينبغى تحطيمها! ففى هذه الحجرة بالذات أشياء تشير نحوى بالاتهام . أشياء خرساء يمكن أن تنقلب شهوداً . فلابد من القضاء على هذا كله .

وفتش فى جيبه ، واستخرج منه كيسه ففتحه وأخذ منه مفتاحاً .

وأولج هذا المفتاح فى ثقب لا تكاد تراه العين بين الرسوم التى تغطى الورق الملتصق بالحائط .. وانفتح مخبأ ، أشبه بخزانة سرية فيما بين زاوية الجدار وإطار المدفأة . ولم يكن فى هذه الفجوة إلا بعض أسمال ، تتبين بينها قميصاً من قماش أزرق ، وسروالا عتيقاً ، وزكيبة قديمة ، وهراوة ضخمة ذات عقد ، ركب على طرفيها كعبان من الحديد . ومن كانوا قد رأوا جان فلجان فى الفترة التى عبر فيها مدينة « د » . فى أكتوبر سنة ١٨١٥ يسهل عليهم أن يتعرفوا على هذا الزى .

وكان قد احتفظ بهذه القطع كما احتفظ بشمعدانى الفضة ، لكى يتذكر على الدوام نقطة بدايته ، ولكنه خبأ ما جاء به من اللمان ، وعرض للأنظار الشمعدانين اللذين جاءاه من الأسقف .

وألقى بنظرة مختلسة صوب الباب كأنما خشى أن يفتح برغم



ومن غير أن يعير هذه الأشياء التى صانها بكل حرص نظرة واحدة ، ألقى بها جميعًا ، بما فيها العصا ، والزكيبة ، فى نار المدفأة ..

المتراس الذى أغلقه به ، ثم بحركة مفاجئة ، ومن غير أن يعير هـذه الأشياء التى صانها بكل حرص نظرة واحـدة ، ألقى بهـا جميعاً ، بما فيها العصا ، والزكيبة ، فى نار المدفأة .

وأغلق الخزانة السرية ، ثم ضاعف من احتياطاته التى لم يعد لها موجب ، لأن الخزانة صارت خاوية تماماً ، فأخفى بابها وراء قطعة أثاث ضخمة دفعها إلى هناك .

وما هى إلا ثوان حتى كانت الحجرة والجدار المقابل لهـا قد أضيئا بانعكاس ضوء أحمر مرتجف . واحترق كل شىء ، وانبعث شرر من العصا الغليظة وصل إلى وسط الحجرة .

أما الزكيبة فاحترقت بمـا فيها من أسمال ، وكشفت عن شىء كان يلمع وسط الرماد . ولو انحنى لتبين فيه بسهولة قطعة نقود من الفضة ، هى بلا ريب تلك القطعة من ذات الأربعين صلدياً التى كان قد سرقها من الصبى « جرفيه الصغير » ولكنه لم ينظر إلى النار ، بل جعل يمشى جيئة وذهاباً بخطوة منتظمة . .

وفجأة وقعت عيناه على شمعدانى الفضة اللذين سطعت عليهمـا الأضواء المنبعثة من المدفأة . ففكر قائلا :

— ويحى ! إن جان فلجان لم يزل بأسره فيهما . فلا بد من تدميرهما أيضاً .

وتناول الشمعدانين .

وكانت هناك نار كافية فى المدفأة لتشويههما بسرعة وتحويلهما إلى سبيكة لا يعرف له شكل .

وانحنى فوق النار واستدفأ قليلا ، واستطاب تلك الحرارة ، ثم حرك الجذوة بأحد الشمعدانين . وبعد دقيقة كان الشمعدانان فى النار .

وفى هذه اللحظة خيل إليه أنه سمع صوتاً يصيح به من فوقه :

— جان فلجان ! جان فلجان !

قف شعر رأسه ! وغدا كرجل يسمع شيئاً رهيباً . وقال له الصوت :

— أتم ما بدأت ! اقض على هذين الشمعدانين ! اقض على هذا التذكار ! انس الأسقف ! انس كل شىء ! ضيع شانماتييه ! هذا حسن ! صفق لنفسك ! هكذا قررت ! وهناك شيخ لا يدرى ماذا يراد به ، ولعله لم يقترف إثماً . لعله برىء ، ولكن اسمك أنت هو سبب بلائه ، وعلى كاهله يثقل اسمك وكأنه جرم ، وسيدان بدلا منك ، ويمضى ما بقى من عمره فى المهانة والهول ! كم هذا حسن ! وتظل أنت رجلا شريفاً ، وعمدة موقراً ، جليلا مبجلا ، تثرى المدينة ، وتطعم الجياع ، وتربى اليتامى ! عش سعيداً فاضلا محاطاً بالتكريم والإعجاب . وفيما أنت هنا يحف بك الضوء والحبور ، يعيش ذلك الآخر تحت سترتك الحمراء ، حاملا اسمك ، مجللا بالعار ، مجرراً أغلالك فى اللمان ! أحسنت صنعاً أيها التعس !

وانساب العرق المتصبب من جبينه . وحدق فى الشمعدانين

بنظرة زائغة . ولكن من كان يخاطبه من داخله لم يكف عن الكلام ، وأردف قائلا :

— جان فلجان ! ستحف بك أصوات كثيرة عالية ذات لجب ، تباركك . ولكن صوتاً واحداً لن يسمعه أحد سيظل يلعنك فى جوف الظلام . أصغ أيها التعس ! كل هذه الأصوات التى تباركك — تعجز عن الصعود إلى السماء ، أما الصوت الوحيد الذى يلعنك فسوف يصل إلى عرش الله !

وكان هذا الصوت قد بدأ ضعيفاً جداً ؛ ثم أخذ يتعالى من أعمق أعماق ضميره ، إلى أن صار مدوياً رهيباً أشد الرهبة ، وصار يسمعه الآن ملء أذنيه . وكان قد خاله فى البداية خارجاً من داخله ، ثم صار يخاله الآن يخاطبه من خارجه ، لأن عباراته الأخيرة كانت بالغة التمييز ، حتى أنه تلفت حوله فى أرجاء الحجرة فى ارتياع . وسأل بصوت عال مشحون بالدهشة :

— أها هنا أحد ؟

ثم قال متضاحكاً ، فكأن ضحكته صادرة من مخبول ، وقال :

— ما أغبانى ! لا يمكن أن يكون ها هنا أحد !

وكان هناك أحد فعلا ، ولكنه لم يكن ممن تستطيع العين البشرية أن تراهم !

ووضع الشمعدانين على المدفأة .

ثم استأنف سيره جيئة وذهاباً فى رتابة واكتئاب ، ذلك السير

الذى أيقظ الرجل النائم فى الحجرة التى تحته مذعوراً من أحلامه .
وكان هذا السير يسرى عنه ولكنه يثيره فى الوقت نفسه . ويبدو أن البشر يمشون هكذا فى أوقات الحيرة والقلق ليلتمسوا النصح ممن يمكن أن يلتقوا بهم فى سيرهم . وبعد بضع لحظات لم يعد يدرى على أى شىء قر قراره . وتراجع مستهولا أمام كل من القرارين اللذين كان قد اتخذهما على التوالى ، وبدت له الفكرتان سيئتين على السواء ! ويا له من قدر غريب هذا الذى جعلهم يظنون شانماتييه هذا أنه هو جان فلجان ! وهكذا وجد نفسه مطارداً بالهلاك من الباب الذى بدا أن العناية دبرته للتمكين لاطمئنانه !

ومرت به لحظة تأمل فيها المستقبل ! أيسلم نفسه ويفشى سره ؟ يا إلهى ! وواجه بكل اليأس كل ما يجب عليه التخلى عنه ، وكل ما يجب عليه أن يعود إليه . لابد إذن من أن يقول وداعاً لهذه الحياة التى وجدها ناعمة رغدة ، نقية ، مشرقة ، وللاحترام والتبجيل اللذين يجدهما عند الجميع ، بل وللحرية نفسها ! ولن يتسنى له بعد الآن أن يذهب للتنزه فى الحقول ، ولن يسمع بعد الآن الطيور الصداحة فى شهر مايو ، ولن يتصدق على الأطفال الصغار ! ولن يحس عـذوبة نظرات العرفان والحب التى توجه إليه ! وسيغادر هذا البيت الذى شيده ! وهذه الحجرة الصغيرة ! ولكم بدا له كل شىء فاتنا فى هذه الساعة ! ولن يطالع هـذه الكتب ، ولن يكتب على هذه المنضدة الصغيرة من الخشب الأبيض ! وبوابته العجوز ، وهى الخادمة

الوحيدة التى لديه ، لن تصعد إليه بقهوته فى الصباح ! يا إله السماء ! بدلا من هذا لن يكون إلا السجن ، والسترة الحمراء ، والقيـد فى قدمه ، والكد والعناء ، والزنزانة ، وفراش المعسكر ، وكل تلك الأهوال التى يعرفها خير معرفة ! وفى سنه هذه ، بعد أن كان ملء السمع والبصر !

وليته كان لم يزل شاباً ! ولكنه الآن شيخ ، وسيجد الخطـاب الجافى المزرى من كل من هب ودب ، ويفتشه الحارس ، وينـاله بعصاه وهو صاغر ! ويلبس الحذاء ذا المسامير الحديدية بدون جورب ويتحمل فضول الغرباء الذين يشار لهم إليه بقولهم :

— هذا هو جان فلجان الشهير ! جان فلجان الذى كان عمدة «م» !

وفى المساء يصعد وهو منهك يتصبب عرقاً والقلنسوة الخضراء فوق عينيه سلم الايمان العائم تحت سوط الرقيب ! أوه ! أى تعاسة ! أيمكن أن يكون القدر غاشماً إلى هذا الحد ؟

ومهما فكر ، عاد به التفكير إلى حيث كان من هذه المعضلة التى كانت مسيطرة على أعماق نفسه : أيبقى فى الفردوس ليكون فيه شيطاناً ، أم يعود إلى الجحيم لكى يغدو فيه ملكاً كريماً !

ما العمل يا ربى ! ما العمل ؟

وهكذا تفجر العذاب الذى كان قد خرج من دائرته قبل قليل بمشقة بالغة ، وشرعت أفكاه تختلط من جديد ، وعاوده من جديد اسم رومنفيل Romainvill مقترناً ببيتين من أغنيـة كان قد سمعها فيما

مضى . وظن رومنفيل غابة صغيرة بالقرب من باريس ، يذهب إليها الشباب من العشاق لقطف زهور الليلك فى شهر أبريل .

وراح يرتجف ظاهراً وباطناً ، ويمشى كطفل صغير تركوه يسير وحده .

وفى لحظات معينة ، كان يقاوم الإنهاك ليستجمع خيوط ذكائه. وحاول للمرة الأخيرة أن يضع نصب عينيه المشكلة التى أثقلت كاهله وأرهقته . أيجب عليه أن يسلم نفسه؟ أم يجب عليه أن يلزم الصمت ؟ ولم يفلح فى تبين حل واضح قاطع ، لأن حجج الجانبين تداخلت وتشابكت وتبددت تباعاً كحلقات الدخان . ولكنه أيقن أنه أياً كان القرار الذى يتخذه ، فلا مناص من أن يموت فيه شىء ما . وأنه ساقط لا محالة فى قبر سواء جنح إلى يمنة أو يسرة . ولابد أن تحتضر فيه إما السعادة أو الفضيلة .

وهكذا ألفى نفسه حيث كان فى البداية ، لم يتجاوزها قيد أنملة. ومن قبله بألف وثمانمائة سنة كان كائن مقدس على جبل الزيتون قد حاول أن ينحى بيده الكأس الرهيبة عن شفتيه ...

* * *

الفصل الرابع
صور من العذاب أثناء النوم

دقت الساعة معلنة الثالثة صباحاً ، وقد انقضت عليه خمس ساعات وهو يسير على هذا النحو ، بغير انقطاع تقريباً ، فارتمى على كرسيه .

ونام وهو جالس ورأى حلماً .

ولم يكن هذا الحلم ، مثل معظم أحلامه ، يرتبط بالموقف ارتباطاً مباشراً ، ولكنه ترك لديه انطباعاً . وبلغ من دهشته بهذا الحلم أنه سجله بالكتابة فيما بعد ، فى إحدى الأوراق المكتوبة التى تركها . ونرى من واجبنا أن نذكر هنا ما كتبه بحروفه .

وأياً كان هذا الحلم ، فتاريخ هذه الليلة لن يكتمل لو أننا أغفلناه . فهو مغامرة محزنة لروح مريض .

وهاك هو . وقد وجدنا على المظروف هذا السطر بخط يده :

« الحلم الذى رأيته فى تلك الليلة » :

« كنت فى بقعة من الريف . وهى بقعة منه مترامية كئيبة كالحة خالية من العشب . ولم أتبين أكان الوقت نهاراً أم كان ليلا .

« وكنت أتنزه مع أخى . أخ سنوات طفولتى ، وهو ذلك الأخ الذى اعترف أنى لا أفكر فيه أبداً ، ولا أكاد أتذكره الآن .

« وكنا نتبادل الحديث ، والتقيت ببعض عابرى السبيل . وتحدثنا

عن جارة لنا فيما مضى ، يطل بيتها على الشارع ، لذا كانت تعمل دائماً ونافذتها مفتوحة . وفيما نحن نتحدث شعرنا بالبرد بسبب هذه النافذة المفتوحة .

« ولم تكن فى هذه الريف أشجار .

« ورأينا رجلا يمر بقربنا . وكان هذا الرجل عارياً تماماً ، بلون الرماد ، يمتطى حصاناً بلون الأرض . وكان هذا الرجل بلا شعر ، فكنا نرى يافوخه ، وعروقاً فى يافوخه . ويمسك بيده عصا لدنة كأنها عود من أعواد الكرم ، ولكنها ثقيلة كالحديد . ومر هذا الخيال ولم يقل لنا شيئاً .

« وقال لى أخى :

— لنسلك الطريق الخاوى .

« وكان هناك طريق خاو لا ترى فيه عوسجة ولا عود طحلب . وكان كل شىء بلون الأرض ، حتى السماء . وبعد بضع خطوات لم أعد أسمع رداً على كلامى ، وفطنت إلى أخى لم يكن معى ...

« ودخلت قرية رأيتها ، وخيل إلى أنها لابد أن تكون رومنفيل Romainville (ولماذا رومنفيل ؟) .

« وكان أول شارع سلكته مقفراً . ودخلت شارعاً آخر . ووراء زاوية التقاء الشارعين وقف رجل لصق الحائط . فقلت لهذا الرجل :

— ما هذا الإقليم ؟ أين أنا ؟

« ولم يرد الرجل على . ورأيت باب بيت مفتوحاً ، فدخلت .

« وكانت الحجرة الأولى خالية ، فدخلت الحجرة الأخرى . ووراء باب هذه الحجرة كان رجل واقفاً لصق الحائط . وسألت هذا الرجل :

— لمن هذا البيت ؟ وأين أنا ؟

« ولم يجبنى الرجل . وكانت للبيت حديقة .

« وخرجت من البيت ودخلت الحديقة . وكانت الحديقة خالية . ووراء أول شجرة وجدت رجلا واقفاً . وقلت لهذا الرجل :

— ما هذه الحديقة ؟ وأين أنا ؟

« ولم يجبنى الرجل » .

« وتجولت فى القرية ، فتبينت أنها مدينة . وكانت الشوارع كلها مقفرة ، والأبواب كلها كانت مفتوحة . وما من كائن حى كان يمر بتلك الشوارع أو يمشى فى الحجرات أو يتنزه فى الحدائق . ولكن كان وراء كل زاوية جدار ، ووراء كل باب ، ووراء كل شجرة رجل واقف وقد التزم الصمت . ولم يكن يشاهد منهم إلا رجل واحد فى كل مرة . وكان هؤلاء الرجال يرمقوننى وأنا أمر بهم .

« وخرجت من المدينة وشرعت أسير فى الحقول » .

« وبعد فترة من الوقت التفت فرأيت حشداً كبيراً يمشى خلفى . فعرفت فيهم جميع الرجال الذين رأيتهم من قبل فى المدينة . وكانت لهم رءوس غريبة . ولم يبد عليهم أنهم يسرعون ، ومع هذا كانوا

أسرع منى . ولم يكن يصدر عنهم أى صوت وهم سائرون . وسرعان ما لحق بى هذا الجمع وأحاط بى . وكانت وجوه أولئك الرجال بلون الأرض .

« وعندئذ قال لى أول من كنت قابلت منهم وسألته عند دخولى المدينة :

— إلى أين أنت ذاهب ؟ ألا تدرى أنك مت منذ وقت طويل؟

« ففتحت فمى لأرد عليه ، وعندئذ لاحظت أنه لم يكن حولى أحداً ! » .

* * *

واستيقظ من سباته ، وقد تثلجت أطرافه . وكانت ريح باردة مثل ريح الصباح قد أدارت مفصلات مصراع النافذة المفتوحة . وقد خمدت النار ، وأوشكت الشمعة على نهايتها . والليل الدامس لم يزل مخيماً .

ونهض واتجه إلى النافذة ، فإذا السماء لم تزل خالية من النجوم .

ومن نافذته كان يرى فناء البيت والشارع . وترامت قعقعة جافة صلبة فجأة فوق أرض الشارع ، فحملته على أن يخفض عينيه عن السماء . ورأى من تحته نجمين أحمرين تطول موجات نورهما وتقصر بصورة غريبة فى الظلام .

ولما كانت أفكاره لم تزل غارقة إلى حد ما وسط ضباب الأحلام ، قال لنفسه :

— عجباً ! ليس فى السماء نجوم ، ولكن ها هى الآن على الأرض !

بيد أن هذا الاضطراب لم يلبث أن تبدد ، وأتمت ضجة أخرى شبيهة بالأولى عملية إيقاظه ، فحدق فى الشارع وعرف فى النجمين الأحمرين مصباحى عربة . وعلى ضوئهما استطاع تبين شكلها ، فإذا هى دوكار شد إليه حصان أبيض صغير . وكانت الضجة التى كان قد سمعها هى وقع حوافر ذلك الحصان على أرض الشارع . فقال لنفسه :

— ما هذه العربة ؟ ومن هذا الذى جاء فى هذه الساعة المبكرة؟

وفى هذه اللحظة دقت طرقة صغيرة على باب حجرته .

فارتعد من فرعه إلى قدمه وصاح بصوت رهيب :

— من هناك ؟

وأجابه صوت نسائى :

— هذه أنا يا سيادة العمدة !

فعرف صوت عجوز ، هى بوابته ، وقال :

— ماذا تريدين ؟ ماذا هناك ؟

— يا سيادة العمدة . الساعة توشك أن تبلغ الخامسة صباحاً .

— وما شأنى بهذا ؟

— يا سيادة العمدة ! لقد جاءت العربة .

— أى عربة ؟

— الدوكار ..

— أى دوكار ؟

— أو لم يطلب سيادة العمدة دوكاراً ؟

فقال :

— لا .

— لقد قال الحوذى : إنه جاء كطلب سيادة العمدة .

— أى حوذى ؟

— حوذى المسيو سكوفلير :

— المسيو سكوفلير !

وجعله هذا الاسم يرتجف كأنما مرق وميض البرق أمام وجهه، وقال :

— فعلا ! المسيو سكوفلير !

ولو كانت العجوز رأته فى هذه اللحظة ، لانتابها الارتياع .

وصمت طويلا . وتمعن بغباء فى شعلة الشمعة ، وتناول بعض الشمع الذائب المحرق وكوره بين أصابعه . وانتظرت العجوز . ثم تجرأت على رفع صوتها مرة أخرى :

— بماذا أجيب الحوذى يا سيادة العمدة ؟

— قولى له إنى سأنزل تواً .

* * *

الفصل الخامس

تعطيــل

كانت خدمة البريد من أراس إلى «م» تتم فى تلك الفترة من الزمن بواسطة عربات صغيرة منذ عهد الإمبراطورية ، وهى عربات ذات عجلتين مبطنة من الداخل بالجلد ، ولها لوالب ، وليس بها إلا مكانان أحدهما للسائق والآخر لمسافر واحد ، وللعجلتين بطبختان كبيرتان صلبتان لإبقاء العربات الأخرى على مبعدة منها . والصندوق الذى به الرسائل ضخم ، مثبت خلف العربة ، ومطلى باللون الأسود ، أما العربة فطلية باللون الأصفر .

وهــذه العربات التى لا شبيه لها اليوم كانت مشوهة الشكل حدباء ، إذا ما شاهدها المرء فى طريق بعيد على الأفق خالها نوعاً من النمل الكبير ذى الصدر الصغير والعجز المنتفخ . وسرعة عربات البريد هذه كبيرة جداً . فالبريد ينطلق من أراس كل ليلة فى الساعة الأولى بعد مرور بريد باريس ، ليصل إلى « م » بعد الساعة الخامسة صباحاً بقليل .

وفى هذه الليلة ، صدم البريد القادم من أراس إلى « م » بطريق إسدان Hesdin عند منعطف أحد الشوارع ، عند دخوله المدينة دوكارا يجره حصان أبيض كان قادماً من الاتجاه المضاد ، وليس فيه إلا شخص واحد ، كان رجلا ملتفاً بعباءة ، فتلقت عجلة هــذا

الدوكار صدمة شديدة ، وصاح حامل البريد بذلك الرجل يستوقفه ، ولكنه لم يسمعه وواصل طريقه بكل سرعته . فقال حامل البريد :

— هاك رجلا بالغ التعجل !

وكان الرجل المسرع على هذا النحو هو الذى رأيناه منذ قليل يتخبط فى تشنجات انفعالية تستحق الرثاء ولا مراء .

وأين كان ذاهباً ؟ هو نفسه لم يكن يدرى على وجه التحديد . ولماذا هو متعجل على هذه الصورة ؟ إنه لا يدرى أيضاً . كان مندفعاً أمامه حيثما اتفق . إلى أين ؟ إلى أراس بلا شك . ولكن لعله كان ذاهباً إلى مكان آخر أيضاً . وفى بعض الأوقات كان يحس هذا ، ويرتجف . ويوغل فى جوف الليل كأنما يغوص فى جب . فثمة شىء يدفعه إلى هناك ويجتذبه . فما يدور فى أعماقه لم يكن ليعبر عنه أحد ، وإن كان الجميع حريين أن يفهموه . ومن هو الإنسان الذى لم يدخل مرة فى حياته على الأقل كهف هذا المجهول ؟

ثم إنه لم يقرر شيئاً معيناً ، ولم يصنع شيئاً . ولم يكن أى فعل من أفعال ضميره نهائياً ، بل هو لم يزل على ما كان عليه فى اللحظة الأولى .

لماذا هو ذاهب إلى أراس ؟

إنه يكرر لنفسه ما سبق أن قاله لنفسه عندما استأجر دوكار سكوفلير ، من أنه أياً كانت النتيجة فليس هناك أى ضرر يترتب على أن يرى بعينيه ويحكم بنفسه على ما يراه . بل إن هذا واجب يمليه الحذر ، فينبغى أن يعرف ما سيجرى هناك . وإنه لا يستطيع أن

يقرر شيئاً من غير أن يلاحظ ويتمعن . فالمرء يبالغ وهو بعيد عن الأحداث ويجعل من الحبة قبة . وإنه فى نهاية المطاف ، عندما يرى شانماتييه هذا على الطبيعة ، ربما هدأ ضميره واطمأن إلى صواب تركه يذهب إلى اللبان بدلا منه . وإنه سيجد هناك فى الحقيقة جافير والسجناء القدامى الثلاثة باللبان : بريفيه ، وشنيلدييه ، وكوشباى الذين سبق لهم أن عرفوه ، ولكنهم قطعاً لن يعرفوه الآن . وأفكار جافير وظنونه بعيدة عنه الآن مائة فرسخ ، فكل شكوكه منصبة الآن على شانماتييه ، فلا خطر عليه إطلاقاً !

لا شك عنده أنه يمر بفترة سوداء ، ولكنه موقن بأنه سيفرغ منها وتنجلى هذه الغمرة . ومهما كانت الظروف قاسية فزمام مصيره بيده هو . فهو لا سواه سيد الموقف . وتشبث بهذه الفكرة .

ولقد كان يفضل ألا يذهب إلى أراس إطلاقاً .

ولكنه ذاهب إلى هناك . وها هو فى الطريق .

وكان — فيما هو يفكر ويقلب خواطره — يلهب ظهر الحصان بالسوط ، فيندفع فى ركضه المنتظم الذى يقطع به فرسخين ونصف فى الساعة .

وكلما تقدم به الدوكار حثيثاً ، أحس فى نفسه بشىء يتراجع .

وما إن بزغ النهار حتى كان فى جوف الريف ، وقد خلف مدينة « م » . بعيدة عنه . ورأى الأفق يبيض ، وتطلع من غير انتباه إلى أشكال فجر الشتاء الباردة ، فللصباح كما للمساء أطيافه . وخلسة منه

أضافت الأشجار والتلال السوداء إلى حالته النفسية الجياشة لوناً من الكآبة والجهامة .

وكلما مر أمام إحدى تلك البيوت المنعزلة التى تحف بالطرق أحياناً ، قال لنفسه :

— أنا فى ثورة نفس ، وفى هذه البيوت أناس يغطون فى نومهم !

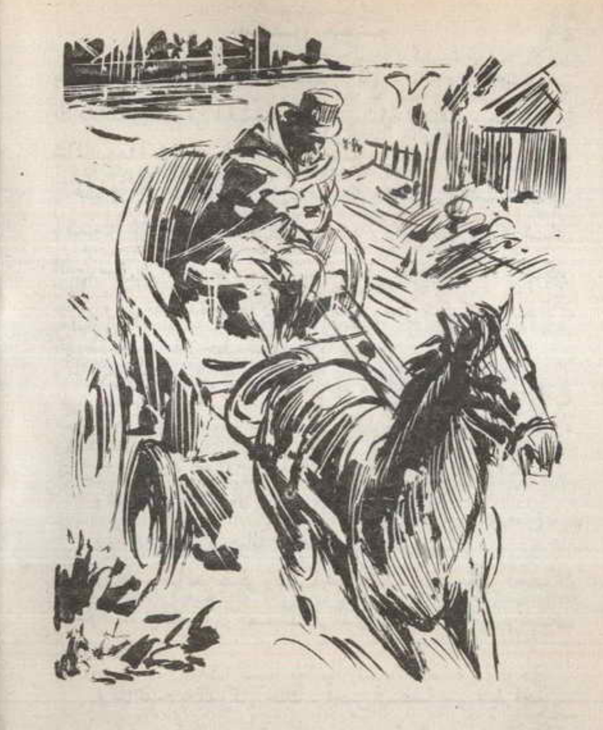
ووقع حوافر الحصان على أرض الطريق ، وجلبة العجلات ، كانت تتردد أصداؤها خافتة رتيبة ، وهى أصداء لطيفة عندما نكون فرحين ، ولكنها تبدو حزينة عندما نكون محزونين .

وكان النهار قد تبلج عندما وصل إلى إسدان ، ووقف أمام نزل ليتيح للحصان أن يسترد أنفاسه ويقدم إليه الشعير .

وهذا الحصان كان كما قال عنه سكوفلير من سلالة بولونية ، لها رأس كبير ، وبطن كبير ، ورقبة قصيرة ، ولكن صدره مفتوح ، وكفله عريض ، وساقه رفيعة جافة صلبة ، وحافره قوى . فهى سلالة قبيحة ، إلا أنها قوية ذات بأس وعافية . وكانت هذه الدابة الممتازة قد قطعت خمسة فراسخ فى ساعتين ولم تبد نقطة واحدة من العرق على كفلها .

ولم ينزل المسيو مدلين من الدوكار ، وانحنى فجأة خادم الإسطبل الذى كان قد أحضر الشعير ليفحص العجلة اليسرى ، وقال الرجل :

— أذاهب أنت إلى بعيد هكذا ؟



وما إن بزغ النهار حتى كان فى جوف الريف ، وقد خلف مدينة « م » . بعيدة عنه ..

وأجابه من غير أن يخرج تقريباً من شروده :

— لماذا ؟

فقال الخادم :

— أقادم أنت من مكان بعيد ؟

— من مسافة خمسة فراسخ.

— آه !

— لماذا تقول آه ؟

فانحنى الخادم مرة أخرى ، وظل صامتاً برهة ، وعينه مثبتة على العجلة ، ثم بسط قامته وهو يقول :

— ذلك أن ها هنا عجلة من الجائز أنها قطعت خمسة فراسخ ، ولكنها عاجزة عن قطع ربع فرسخ آخر .

فقفز المسيو مدلين من الدوكار وصاح :

— ما هذا الذى تقول يا صاحبى ؟

— أقول إنها لمعجزة أنك قطعت خمسة فراسخ من غير أن تتدحرج أنت وحصانك فى إحدى خنادق الطريق الكبير . انظر بنفسك !

وكانت العجلة معطوبة جداً بالفعل . فاصطدام بطيخة عجلة عربة البريد كان قد حطم شعاعين وشدخ بطيخة العجلة شدخاً جعلها معرضة للسقوط العاجل .

وقال مدلين لخادم الإسطبل :

— أيوجد ها هنا يا صاحبى نجار عربات ؟

— بالتأكيد يا سيدى .

— اذهب وأحضره من فضلك .

— إنه هاهنا . على قيد خطوتين . هيه ! يا معلم بوجيار Bour-gaillard

فقد كان المعلم بورجيار ، نجار العربات على عتبة بابه . وجاء لفحص العجلة وتجهم وجهه كتجهم جراح يفحص ساقاً مهيضة . وسأله مدلين :

— أمن الممكن أن تصلح هذه العجلة فى الحال ؟

— أجل يا سيدى !

— ومتى أستطيع استئناف السير بها ؟

— غـداً .

— غـداً !

— إنها تحتاج إلى يوم بطوله لإصلاحها . هل السيد فى عجلة من أمره ؟

— جداً . ينبغى أن أنطلق من هنا فى مدى ساعة على الأكثر .

— مستحيل يا سيدى !

— سأدفع لك كل ما تطلبه .

— مستحيل .

— ليكن ! لتنقل بعد ساعتين !

– بل مستحيل أن تسافر اليوم ، فلابد من عمل شعاعين وبطيخة للعجلة ، فلن يتمكن سيدى من المضى قبل الغد .

– المسألة التى أسافر بسببها لا يمكن أن تنتظر حتى الغد . لماذا بدلا من إصلاح هذه العجلة – لا تضع أخرى بدلا منها ؟

– كيف هذا ؟

– ألست نجار عربات ؟

– بلى بالتأكيد يا سيدى .

– أليست لديك عجلة جاهزة تبيعنى إياها ؟ وهكذا أتمكن من مواصلة الطريق فوراً .

– تعنى عجلة غيار ؟

– نعم .

– ليست لدى عجلة جاهزة لدوكارك . فللدوكار عجلتان ، ولا يمكن أن تتوافق عجلتان حيثما اتفق .

– فى هذه الحالة بعنى عجلتين .

– ليست كل العجلات تصلح لكل المحاور .

– جرب على كل حال !

– مستحيل ! فليست عندى عجلات إلا لعربات النقل ...

– ألديك دوكار تؤجرنى إياه ؟

وكان نجار العربات قد أدرك من أول نظرة أن الدوكار مستأجر فهز كتفيه وقال :

– أنت حسن الصيانة للدوكارات التى تستأجرها ! ولو كان عندى دوكار لما أجرته لك !

– ليكن ! بعنى إياه !

– ولكن ليس عندى دوكار . ليست عندى إلا عربات نقل ثقيلة : ولكن فى عهدتى مركبة قديمة يملكها برجوازى من المـدينة ولا يستخدمها إلا نادراً ، ومستعد أن أؤجرها لك – ولكن ينبغى ألا يراها البرجوازى مارة من أمامه . ثم إنها عربة تحتاج إلى حصانين .

– سأستخدم خيول البريد .

– وإلى أين يذهب السيد ؟

– إلى أراس .

– ويريد السيد أن يصل إليها اليوم ؟

– نعم .

– مستخدماً خيول البريد ؟

– ولم لا ؟

– وهل لا يضير سيدى أن يصل إلى هناك فى الرابعة صباحاً ؟

– طبعاً هذا لا يوافقنى . فالرابعة صباحاً معناها الغد لا اليوم .

– ألدى سيدى جواز سفر ؟

– نعم .

– عظيم ! ولكن باستخدام خيول البريد لن يصل سيدى إلى أراس قبل الغد . فنحن طريق عبور للبريد ، وخيول البدائل سـيئة

الحلمة . وخيول الناس فى الحقول . فقد بدأ موسم استخدام المحاريث الكبيرة . ولذلك تجمع لها الخيول من كل مكان ، حتى خيول البريد . ولذلك سيضطر السيد للانتظار ثلاث ساعات أو أربع انتظاراً للبدائل فى كل محطة بريد . ثم إنها خيول لا تركض ، بل تسير بالخطوة البطيئة . وهناك هضاب كثيرة فى الطريق لا بد من صعودها .

— سأذهب راكباً حصاناً إذن . حل الدوكار . وأظن أنه من الممكن أن أشترى سرجاً من هذا المكان .

— بالتأكيد . ولكن أيقبل هذا الحصان السرج ؟

— هذا صحيح ! لقد ذكرتنى ! إنه لا يتقبله .

— إذن ...؟

— ولكن يمكننى أن أجد فى القرية حصاناً للإيجار ؟

— للذهاب عليه إلى أراس دفعة واحدة ؟

— نعم !

— ينبغى لهذا الغرض حصان لا وجود له فى ناحيتنا هذه . ثم لابد من شرائه ، لأنهم لا يعرفونك . ولكنك لن تجد هذا الحصان لا بالإيجار ولا بالشراء ، لا بخمسمائة فرنك ، ولا بألف !

— ما العمل إذن ؟

— رأيى كرجل شريف ، أن أصلح العجلة ، وأن تؤجل رحلتك إلى الغد .

— سيكون الغد بعد الأوان . أليست هناك عربة للبريد تذهب إلى أراس ؟ متى تمر من هنا ؟

— الليلة القادمة . فالعربتان تقومان بالخدمة ليلا ، العربة الذاهبة إليها والعربة القادمة منها .

— أتحتاج حتى إلى نهار بأكمله لإصلاح هذه العجلة ؟

— نهار بطوله !

— ولو استخدمت عاملين ؟

— ولو استخدمت عشرة !

— ألا يكفى أن نربط الشعاعات بالحبال ؟

— الشعاعات ؟ هذا ممكن . أما البطيخة فلا !

— ألا يمكن استئجار عربة من المدينة ؟

— لا .

— ألا يوجد نجار عربات آخر ؟

فرد عليه خادم الإسطبل ونجار العربات فى آن واحد وهما يهزان رأسيهما :

— لا !

فأحس فرحاً غامراً !

فواضح أن العناية الإلهية لها يد فى هذا . فهى التى حطمت عجلة الدوكار فتوقف فى الطريق . وها هو قد بذل أقصى جهده كى يتمكن من إتمام الرحلة . وقد استنفد كل الوسائل بمنتهى الصدق

والإخلاص . ولم ينكص أمام قسوة الجو ولا أمام التعب ، ولا أمام التكاليف . فليس ثمة ما يلوم عليه نفسه . ولئن عجز عن المضى إلى أبعد من هذا ، فليس ذلك عن تقصير منه ! لم يعد هذا خطأه ، لأنه ليس من عمل ضميره ، بل من عمل العناية الإلهية .

وتنهد . وتنفس بحرية وبملء صدره لأول مرة منذ زيارة جافير . وخيل إليه أن القبضة الحديدية التى تعصر قلبه منذ عشرين ساعة قد أفرجت عنه .

وخيل إليه أن الله صار الآن فى جانبه ، وأعلن له هذا .

قال لنفسه : إنه صنع كل ما فى وسعه ، وإنه لم يعد أمامه إلا ان يعود أدراجه مطمئن البال .

ولو كان حديثه مع نجار العربات جرى فى حجرة داخل المنزل ، لما كان ثمة شهود استمعوا إليه ، وعندئذ ما كنا لنتمكن من إيراد هذا الحديث ولا أى حدث من الأحداث التى سيقرأ القارئ هنا . ولكن هذا الحديث جرى فى الطريق العام . وكل كلام على قارعة الطريق لابد أن يحدث دوائره من الأصداء . وهناك دائماً أشخاص لا مأرب لهم إلا المشاهدة . ففيما هو يسأل نجار العربات وقف بعض السابلة من حولهما . وبعد دقائق من الإصغاء إذا صبى لم يكن أحد قد ألقى إليه بالا ينفلت من الجمع راكضاً .

وفى اللحظة التى قرر فيها المسافر ، بعد المداولة الداخلية التى

بيناها ، أن يعود أدراجه ، عاد هذا الصبى ، وفى صحبته امرأة عجوز قالت :

— سيدى . قال لى الغلام : إنك تريد استئجار عربة خفيفة :

وما إن سمع هذه العبارة من العجوز التى يقودها غلام حتى تصبب جسمه عرقاً ، وقد خيل إليه أن اليد التى أطلقت سراحه منذ برهة بدت له فى الظلام من خلفه تهم باستعادته . وأجابها :

— نعم أيتها المرأة الطيبة . أريد اكتراء عربة خفيفة . ولكن لا شىء من هذا فى هذه الناحية .

فقالت العجوز :

— بلى . توجد يا سيدى عربة خفيفة للإيجار .

فقال نجار العربات :

— أين ؟

فقالت العجوز :

— عندى .

فارتجف مدلين . فها هى القبضة قد عادت لاعتصار قلبه .

وبالفعل كانت عندها تحت عريشة عربة عتيقة ، راح خادم الفندق ونجار العربات الحانقان لإفلات المسافر منهما يلمانها ويقدحان فى متانتها وقدرتها . وكان هذا كله صحيحاً ، ولكنها على كل حال شىء مصنوع من الخيزران يجرى على عجلتين ويمكن أن يوصله إلى أراس .

ودفع مدلين للمرأة ما طلبت ، وترك الدوكار كى يصلحه النجار ريثما يعود إليه ، وشد الحصان الأبيض إلى عربة الخيزران الخفيفة وركبها ، واستأنف الطريق الذى كان قد بدأه منذ الفجر .

وفى اللحظة التى انطلقت فيها العربة اعترف لنفسه أنه كان فى اللحظة السابقة سعيداً جداً لعجزه عن المضى قدماً . وتمعن فى ذلك الحبور بشىء من الغضب ، فألفاه سخيفاً . ففيم الحبور لنكوصه على عقبيه ؟ إنه على أى حال يقوم بهذه الرحلة بملء حريته ، فما من أحد كان يجبره عليها .

ومن المؤكد أنه لن يحدث له إلا ما يريده هو .

وعند خروجه من إسدان سمع صوتاً يصيح به :

— قف ! قف !

فأوقف العربة بحركة مفاجئة يشوبها الرجاء . وإذا بالصائح ذلك الغلام الذى كان يقود المرأة العجوز ، وقال له :

— سيدى ! أنا الذى أمددتك بهذه العربة .

— ثم ماذا ؟

— أنت لم تعطنى شيئاً ...

— وكان مدلين يعطى الجميع بكل سهولة ، ولكنه — لأمر ما — وجد هذه المطالبة مثيرة لغضبه ، وتكاد أن تكون وقحة ، فقال :

— آه ! أهو أنت ؟ لن تنال شيئاً !

وضرب الحصان بالسوط وانطلق بكل سرعة . فقد أضاع كثيراً

من الوقت فى إسدان ، وأراد أن يعوضه . وكان الحصان مقداماً ، يجر العربة كأنه حصانان ، ولكننا كنا فى شهر فبراير ، وقد أمطرت السماء فى الليلة الماضية ، فصارت الطرق سيئة . ثم إن هذا ليس دوكارا ، بل عربة مهما كانت خفيفة فهى أثقل من الدوكار ، وثمة مواضع فى الطرق صاعدة . لذا استغرق نحو أربع ساعات للوصول من إسدان إلى سان بول ، أى قطع خمسة فراسخ فى أربع ساعات .

وفى سان بول حل الحصان من العربة فى أول نزل صادفه ، وذهب به إلى الإسطبل . وكما وعد سكوفلير وقف قرب السائس إلى أن انتهى الحصان من طعامه ، وهو يفكر فى أمور حزينة وغامضة .

ودخلت زوجة صاحب الخان إلى الإسطبل وقالت :

— ألا يريد السيد أن يتغدى ؟

فقال :

— معك حق ! بل إنى أحس شهية طيبة للطعام .

وتبع تلك المرأة ذات القامة الناضرة والوجه الباسم ، فقادته إلى قاعة منخفضة السقف بها موائد عليها مفارش من المشمع ، وقال لها :

— أسرعى ! فلا بد أن أواصل الرحلة ، فأنا على عجل من أمرى .

وأسرعت خادمة فلمنكية بدينة بوضع أدوات المائدة بكل سرعة . ونظر إلى تلك الفتاة بارتياح . وقال فى نفسه :

— هذا ما كانت تضيق به نفسى . كنت جائعاً .

وجاء الطعام فانقض على الخبز ، وقضم ملء فمه منه ، ثم أعاده ببطء إلى المائدة ولم يمسه بعد ذلك .

وكان أحد عمال الطرق يأكل فوق مائدة أخرى ، فسأله مدلين :

— لماذا أجد خبزهم بكل هذه المرارة ؟

وكان الرجل ألمانياً فلم يفهم قوله .

وعاد مدلين إلى الإسطبل حيث الحصان . وبعد ساعة كان قد غادر سان بول واتجه صوب « تنك » Tinques التى لا تبعد عن أراس إلا خمسة فراسخ .

وماذا كان يصنع أثناء هذه الرحلة ؟ فيم كان يفكر . كان يفعل ما فعله فى الصباح : ينظر إلى الأشجار والسقوف المصنوعة من القش والحقول المزروعة والمناظر التى تتغير مع كل ثنية فى الطريق. وهو نوع من التأمل الذى يكفى النفس أحياناً ويكاد يغنيها من التفكير . فرؤية ألف شيء للمرة الأولى وللمرة الأخيرة ، فيها كثير من الشجن والعمق ! فالسفر معادل للحياة والموت فى كل لحظة . ولعله فى أعماق نفسه كان يقارن بين هذه الآفاق المتغيرة وبين الوجود البشرى . فكل أمور الحياة فى فرار دائم أمام أنفسنا فى كل لمحة . والأضواء والظلال شد ما تتداخل . فبعد التبلج يأتى الأفول ، وعبثاً يمد المرء يده ليمسك بما يمر أمامه . فكل حدث إنما هو منعطف طريق ... وفجأة نجد أنفسنا فى الظلام ، وشخص مجهول مقنع يحل سيور الحصان الذى يجر عربتنا .

وكان الغسق قد بدأ عندما رأى الأطفال الخارجون من المدرسة ذلك المسافر يدخل « تنك » . وكان النهار قصيراً . ولم يتوقف المسافر فى «تنك» . وفيما هو يغادر القرية ، رفع مرمم الطريق رأسه وقال :

— هاك حصاناً نال منه التعب !

وكانت الدابة بالفعل لا تسير إلا على مهل . وأردف مرمم الطريق :

— أذاهب أنت إلى أراس ؟

— نعم .

— إن مضيت بهذا المعدل فلن تصل فى وقت مبكر .

فأوقف مدلين الحصان وسأل مرمم الطريق :

— كم المسافة بيننا وبين أراس ؟

— قرابة سبعة فراسخ .

— كيف هذا ؟ دليل طرق البريد يقول : إن المسافة خمسة فراسخ وربع !

فقال مرمم الطريق :

— آه ! أنت لا تعلم إذن أن الطريق تحت الإصلاح . ولذا ستجده مقطوعاً بعد ربع ساعة من ها هنا ، ولا سبيل إلى مواصلة السير فيه .

— حقاً ؟

— لذا عليك أن تتجه إلى اليسار فى الطريق الذاهب إلى كارنسى

وعليك هناك أن تعبر النهر ، وعندما تصل إلى كمبلان Camblin تتجه إلى اليمين ، وهذا هو طريق مون سانت إيلوى Mont St. Eloy الذاهب إلى أراس .

— ولكن ها هو الليل يخيم ، سأضل طريقى .

— ألست من هذا الإقليم ؟

— لا .

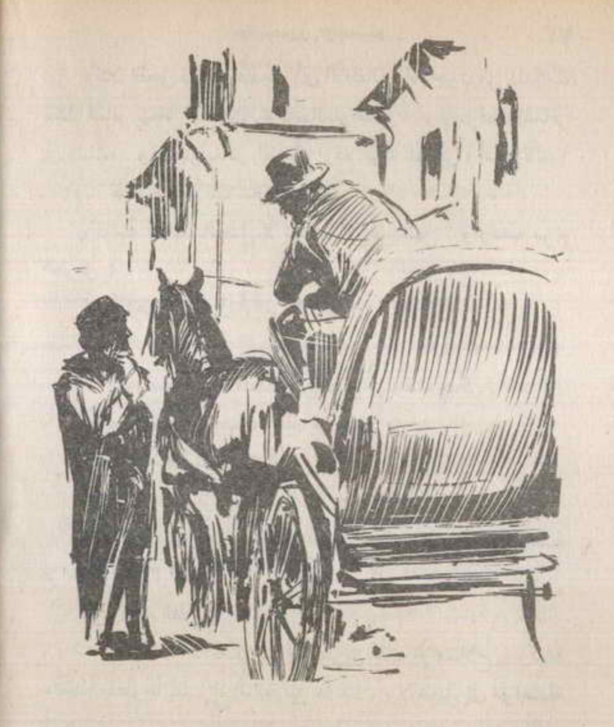
— اسمع يا سيدى . أتحب أن أسدى إليك نصيحة ؟ حصانك مجهد ، عد إلى « تنك » ، وفى القرية نزل طيب ، نم به الليلة واذهب غداً إلى أراس .

— بل لابد أن أكون هناك هذا المساء .

— إن كان ولابد فاذهب على كل حال إلى الخان ، وخذ منهم حصاناً أردفه إلى حصانك ، وسيرشدك سائس الحصان إلى طريقك فى الظلام .

واستجاب لنصح مرمم الطريق ، فعاد أدراجه ، وبعد نصف ساعة ظهر مرة أخرى فى نفس الموضع ، ولكنه كان منطلقاً هذه المرة بكل سرعة ، لأن الحصان الآخر كان قوياً ، وكان معه سائس ذكى .

ومع ذلك أحس أنه يضيع وقتاً . فالظلام كان قد خيم تماماً . ودخل الطريق الفرعى ، فإذا به شديد السوء ، كثير الحفر ، فقال للسائس :



وفيما هو يغادر القرية ، رفع مرمم الطريق رأسه وقال :
— هاك حصاناً نال منه التعب !..

— انطلق بكل سرعة مهما كان ، وسأضاعف لك الهبة !

وبعد قليل ، انكسر عريش العربة ، وقال السائس :

— ها قد انكسر العريش ، ولم أعد أدرى كيف أربط حصانى ، فهذا الطريق شديد السوء فى الليل ، فليتك تعود للمبيت فى « تنك » وأعدك أن نكون غداً فى وقت مبكر من الصباح فى أراس .

فقال له مدلين :

— ألديك حبل وسكين ؟

— نعم يا سيدى .

فكسر مدلين فرع شجرة وجعل منه عريشاً . وهكذا ضاعت عشرون دقيقة أخرى ، ولكنهم استأنفوا الركض بكل سرعة .

وكان السهل المنبسط حالك الظلمة ، وضباب منخفض أسود يربن على التلال ، ويتصاعد منها كالدخان . وكانت بين السحب أضواء ضاربة إلى البياض . ورياح قوية تهب من البحر وتحدث فى جميع أركان الأفق أصواتاً تشبه أصوات قلقلة الأثاث . وكل ما تلمحه العين يوقع فى النفس الرهبة . فكم ترتعد الأشياء تحت أنفاس الليل القوية .

وتخلله البرد ، لأنه لم يكن قد أكل شيئاً منذ الليلة الماضية . وتذكر فى غموض سفرته الليلة الأخرى فى السهل الكبير فى ضواحى مدينة « د » منذ ثمانى سنين ، وخيل إليه أن ذلك كان بالأمس .

ودقت الساعة فى أحد الأبراج البعيدة ، فسأل السائس :

— ما هذه الساعة ؟

— إنها الساعة السابعة . سنصل إلى أراس فى الثامنة ، فلم تبق أمامنا إلا ثلاثة فراسخ .

وعندئذ قال فى نفسه لأول مرة ، وقد عجب لأن الفكرة لم تخطر له من قبل :

— ربما كانت كل جهودى هذه فى غير طائل . فأنا لا أعرف بالضبط موعد نظر القضية . وكان ينبغى على الأقل أن أستفسر عن هذا . ومن الخطل أن أذهب هكذا من غير أن أعرف هل هذا يمكن أن يكون مجدياً أم لا .

ثم قام ببعض الحسابات فى سريرته ، قائلا : إن جلسات محاكم الجنايات تبدأ عادة فى التاسعة صباحاً . وإن هذه القضية لا يمكن أن تطول كثيراً ، فمسألة سرقة التفاح ستنظر بسرعة كبيرة ، ثم تأتى مسألة التحقق من هويته ، فتسمع أربع شهادات أو خمس ، وليس لدى المحامين الكثير ليقال ، وهكذا سيصل بعد انتهاء كل شىء .

وألهب السائس الحصانين بالسوط ، وكانوا قد عبروا النهر وتركوا وراءهم مون سانت ألوى .

وزادت حلكة الليل سواداً .

* * *

الفصل السادس
الأخت سمبليس تدخل فى تجربة

وفى نفس هذه اللحظة كانت فانتين فى قمة الفرح .

وكانت قد أمضت ليلة سيئة جداً . سعال فظيع ، وحمى شديدة ، ورأت أحلاماً . وفى الصباح عندما جاءها الطبيب كانت تهذى ، فارتاع وأوصى بإخطاره بمجرد حضور المسيو مدلين .

وظلت طيلة الصباح واجمة ، قليلة الكلام ، منصرفة إلى إحداث قطوب وثنيات فى أغطيتها وهى تتمتم بصوت خافت حسابات بدا أنها تتعلق بالمسافات . وكانت عيناها غائرتين ثابتتى النظرة ، وكأنما قد خبت أنوارهما . ولكنهما كانتا تتوهجان فى بعض اللحظات وكأنهما نجمان . والظاهر أنه عند اقتراب الساعات المعتمة العصيبة تملأ أنوار السماء من غادرتهم أضواء الأرض .

وكانت كلما سألتها الأخت سمبليس كيف حالها ، تجيبها بلا اختلاف :

— بخير . أريد أن أرى المسيو مدلين .

وقبل ذلك ببضعة أشهر ، حينما فقدت فانتين آخر بقية من عفتها ، وآخر أفراحها ، وآخر ما كان تبقى لها من حياء ، صارت ظلا لما كانت عليه من قبل ، أما الآن فهى مجرد شبح . فالمرض الجسدى كان قد أتم ما فعله بها الداء الخلقى . فإذا هذه المخلوقة ابنة الخامسة

والعشرين منغضنة الجبين ، غائرة الوجنتين ، مخلخلة الأسنان ، معروقة الرقبة ، كالحة اللون ، هزيلة الأعضاء ، بشرتها بلون التراب ، وقد خالطت شعرها الأشقر الذهبى شعرات بيضاء . وأسفاه ! كم يعجل المرض بالشيخوخة التى يرتجلها ارتجالا !

وعند الظهر عاد الطبيب لزيارتها ، ووصف أدوية جديدة ، وسأل هل جاء المسيو مدلين إلى المستوصف ، ثم هز رأسه .

وكان من عادة المسيو مدلين أن يحضر فى الساعة الثالثة لرؤية المريضة : ولما كانت الدقة لوناً من الطيبة ، لذا كان دقيقاً فى مواعيده .

وفى نحو الساعة الثانية والنصف بدأت فانتين تتململ . وفى مدى عشرين دقيقة سألت الراهبة أكثر من عشر مرات :

— كم الساعة الآن يا أخت ؟

ودقت الساعة ثلاثاً . وعند الدقة الثالثة انتصبت فانتين فى مضجعها ، وهى التى لم تكن تقدر على التقلب فى فراشها من شدة الإعياء والضنى ، وضمت فى تشنج يديها الصفراوين الهزيلتين . وسمعت الراهبة أنة تخرج من صدرها ، ثم التفتت فانتين وتطلعت نحو الباب .

ولم يدخل أحد . ولم ينفتح الباب .

وظلت هكذا ربع ساعة ، وعينها مثبتة على الباب ، جامدة الأوصال وكأنما قد حبست أنفاسها . ولم تجسد الراهبة على أن تكلمها .

ودقت ساعة الكنيسة الثالثة والربع ، فألقت فانتين بنفسها فوق الوسادة :

لم تقل شيئاً ، وعادت إلى صنع الثنايا فى أغطيتها .

ومر نصف الساعة . ثم ساعة . ولم يحضر أحد . وكلما دقت الساعة كانت فانتين تنهض جالسة وتتطلع إلى الباب ، ثم ترتمى على الفراش مرة أخرى .

كان تفكيرها واضحاً للناظر إليها . ولكنها لم تتفوه بأى كلمة . ولا بأى اسم . لم تشك أو تتذمر . لم تتهم أحداً . كل ما هناك أنها جعلت تسعل بصورة مريعة . وكأنما هبط عليها ظل قاتم . فهى كالحة المحيا ، زرقاء الشفتين . ولكنها كانت فى بعض اللحظات تبتسم .

ودقت الساعة الخامسة . وعندئذ سمعتها الأخت الراهبة تقــول بصوت خفيض جداً :

ــ ما دمت سأمضى غداً ، فهو مخطئ لعدم حضوره اليوم !

وكانت الأخت سمبليس نفسها فى دهشة من تأخر المسيو مدلين.

ومع هذا كانت فانتين تتطلع إلى السماء من فراشها ، وكأنمــا تحاول أن تتذكر شيئاً ما . وفجأة شرعت تغنى بصـوت ضعيف كالهمس . وأصغت الراهبة . وإليك ما كانت تترنم به فانتين :

« سنشترى أشياء جميلة

« ونحن نتنزه فى الضواحى

« الزهور الزرقاء زرقاء . والورد وردى اللون ،

« الزهور الزرقاء زرقاء . وأنا أحب أحبائى :

« العذراء مريم بقرب مدفئتى

« جاءت بالأمس فى عباءة مطرزة ،

« وقالت لى : هاك ، مخبوءاً تحت وشاحى

« وليد اليوم الواحد الذى طلبته منى

« جوبى المدينة واحصلى على قماش

« واشترى خيطاً ، واشترى كستباناً .

« سنشترى أشياء جميلة .

« ونحن نتنزه فى الضواحى

« أيتها العذراء المقدسة الطيبة قرب موقدى

« وضعت مهداً مزيناً بالأشرطة

« وسيعطينى الله أجمل نجم لديه

« كم أحب الطفل الذى أعطيتنيه

« ــ سيدتى ! ماذا أصنع بهذا القماش ؟

« ــ اصنعى جهازاً لمولودى .

« الزهور الزرقاء زرقاء ، والورود وردية

« الزهور الزرقاء جميلة ، وأنا أحب أحبائى !

« اغسلى هذا القماش – أين ؟ – فى النهر ..

« واصنعى منه من غير أن تفسديه

« تنورة جميلة وصدرية

« أريد تطريزها وأملؤها بالأزهار .

« – الطفل لم يعد هناك يا سيدتى . فماذا أصنع ؟

« – اصنع منه ملاءة للمواراة ..

« سنشترى أشياء جميلة

« ونتنزه فى الضواحى

« الزهور الزرقاء زرقاء . والورود وردية

« الزهور الزرقاء زرقاء . وأنا أحب أحبائى ! » .

* * *

وكانت هذه الأغنية أمهودة تترنم بها فيما مضى لتنيم ابنتها كوزيت وهى صغيرة . ولم تكن خطرت ببالها منذ خمس سنوات ، أى منذ فارقت طفلتها . وقد غنتها الآن بصوت جد حزين ، وبنغمة بالغة العذوبة ، تغرى بالبكاء من يسمعها ، ولو كانت راهبة . فإذا بالأخت التى ألفت المحن والأرزاء وقد فرت من عينها دمعة .

ودقت الساعة ست دقات ، وبدا على فانتين أنها لم تسمعها ، فهى لم تعد تلقى بالها إلى أى شىء مما حولها .

وأرسلت الأخت سمبليس خادمة تستفسر من بوابة المصنع هل عاد سيادة العمدة أم لا ؟ وهل سيصعد بعد قليل إلى المستوصف أم لا ؟ وبعد دقائق عادت الخادمة .

وكانت فانتين لم تزل جامدة الأوصال ، وواضح أنها مستغرقة فى أفكارها الخاصة .

وقالت الخادمة بصوت خافت للأخت سمبليس إن سيادة العمدة كان قد سافر قبل الساعة السادسة صباحاً فى دوكار صغير يجره حصان أبيض ، رغم شدة البرد ، وإنه سافر وحده ، وليس معه حوذى . ولا يدرى أحد أى طريق سلكه . وقال بعض الناس : إنهم رأوه يأخذ فى طريق أراس ، فى حين قال غيرهم : إنهم رأوه يشرع فى طريق باريس . وقالت لها أيضاً : إن البوابة أكدت لها أنه كان عند سفره رقيقاً دمثاً كعادته ، إلا أنه قال للبوابة ألا تنتظر عودته هذه الليلة .

وفيما كانت المرآتان تتساران ، موليتين ظهريهما نحو فراش فانتين ، والراهبة تسأل والخادمة تجيب ، ركعت فانتين فوق فراشها ، واتكأت بيديها المزيلتين الصغراوين على رأس السرير ، وأطلت برأسها من فرجة فى ستائره وأصغت . وفجأة صاحت :

– أنتما تتحدثان عن المسيو مدلين ! لماذا تتحدثان همساً ؟ ماذا يصنع ؟ لماذا لم يحضر ؟

وكان صوتها حاداً جداً وأجش ، حتى أن المرأتين حسبتا أنهما تسمعان صوت رجل . فالتفتتا مروعتين .

وصاحت فانتين :

– أجيبا إذن !

فغمغمت الخادمة :

– قالت لى البوابة : إنه لن يستطيع الحضور هذا اليوم !

وقالت الراهبة :

– اهدئى بالا يا ابنتى ! وارقدى !

فقالت فانتين ، من غير أن تغير وضعها ، بصوت عال ونبرة آمرة :

– لن يستطيع الحضور؟ ولماذا ؟ أنتما تعرفان السبب. وتتساران به فيما بينكما . وأريد معرفته !

وأسرعت الخادمة تهمس فى أذن الراهبة :

– قولى إنه مشغول فى المجلس البلدى !

فاحمر وجه الأخت سمبليس قليلا ، لأن ما اقترحته الخادمة عليها أكذوبة . ومن جهة أخرى بدا لها أن قول الحقيقة للمريضة قد ينزل بها صدمة رهيبة ولا شك ، وذلك أمر خطير فى مثل حالة فانتين . ولم تطل هذه الحمرة التى علت وجهها طويلا ، ثم رفعت إلى وجه فانتين عيناً تفيض هدوءاً وأسى وقالت :

– المسيو مادلين مسافر .

فجلست فانتين على كعبيها ، ولمعت عيناها ، وأضاءت هذه السحنة العليلة فرحة لا شبيه لها ، وصاحت :

– مسافر ؟ لقد ذهب لإحضار كوزيت ؟

ثم مدت يديها نحو السماء ، وأشرق محياها كله . وتحركت شفتاها . وأخذت تصلى بصوت خافت .

ولما فرغت من صلاتها ، قالت :

– يا أختاه ! أريد الآن أن أرقد . وسأنفذ كل ما يراد منى . فمنذ قليل كنت مشاغبة . وأسألك الصفح لأنى رفعت صوتى هكذا . فعيب كبير أن أرفع صوتى . أعلم هذا يا أخت . ولكن ها أنت ترينني راضية جداً . فالله كريم رحيم . والمسيو مدلين طيب . تصورى أنه ذهب بنفسه إلى مونفرمى لإحضار صغيرتى كوزيت !

ورقدت ، وساعدت الراهبة فى تسوية الوسادة ، وقبلت صليباً صغيراً من الفضة مدلى من عنقها ، كانت الأخت سمبليس قد أعطتها إياه . وقالت الأخت الراهبة :

– يا ابنتى . حاولى الآن أن تستريحى ، ولا تتكلمى :

فتناولت فانتين فى يديها الرطبتين يد الراهبة ، التى تألمت عندما وجدتها تتصبب عرقاً هكذا ، وقالت فانتين :

– لقد سافر هذا الصباح إلى باريس . والواقع أنه ليس بحاجة إلى أن يمر بباريس ، فمنفرمى على يسار القادم من باريس . أتذكرين كيف قال لى بالأمس عندما حدثته عن كوزيت : « عما قريب ترينها . عما قريب » . فهى مفاجأة يريد أن يتحفنى بها ! أتعرفين ؟ لقد جعلنى أوقع خطاباً لاستردادها من آل تردييه . لن يجدوا

ما يقولونه . أليس كذلك ؟ سيسلمونه كوزيت ، ما داموا قد قبضوا الثمن. والسلطات لا تسمح باستبقاء طفلة بعد تقاضى النقود. لاتشيرى إلى يا أختاه كيلا أتكلم ! فأنا فى غاية السعادة . وصحتى على ما يرام : لم أعد أشعر بمرض إطلاقاً ، لأنى سأرى كوزيت . بل إنى جائعة جداً . فقد مرت قرابة خمسة أعوام لم أرها فيها . وأنت طبعاً لا تتخيلين كم تتعلق الأم بأطفالها ! ثم إنها ستكون لطيفة جداً . سترين ! آه لو تعلمين ! إن لها أنامل صغيرة وردية ! ستكون يداها آية فى الجمال ! ... لابد أنها كبرت الآن ! فى السابعة من عمرها . هى الآن آنسة ! أنا أناديها كوزيت ولكن اسمها الحقيقى إيفرازى Euphrasie وهذا الصباح رأيت غباراً فوق المدفأة ، وخطر لى عندئذ أننى سأرى كوزيت عما قريب . يا إلهى ! كم يخطئ المرء بترك السنوات تمضى من غير أن يرى أطفاله ! ينبغى أن نتذكر أن الحياة ليست أبدية ! أوه ! ما أطيب قلب سيادة العمدة لأنه سافر ؟ ولكن البرد شديد . أتراه أخذ عباءته على الأقل ؟ سيكون هنا غداً . أليس كذلك ؟ سيكون غداً يوم عيد . ذكرينى يا أختاه غداً صباحاً أن ألبس قلنسوتى ذات الدانتلا ... منفرمى قرية ، وقد قطعت الطريق منها على قدمى، فى ذلك الحين ... ولكن سيادة العمدة سيركب الحافلة ، وما أسرعها ! وسيكون ها هنا غداً مع كوزيت . كم المسافة من هنا إلى فرمى ؟

وأجابت الراهبة التى لا معرفة لها بالمسافات :

– أوه ! أعتقد أنه سيتمكن من الوصول إلى هنا غداً .

فقالت فانتين :

– غداً ! غداً ! سأرى كوزيت غداً . انظرى أيتها الأخت الصالحة المقدسة . أنا لم أعد مريضة . أنا مجنونة ! لو أردتم لرقصت !

ولو رآها أحد منذ ربع ساعة لما فهم شيئاً ، فهى الآن وردية اللون تماماً ، تتكلم بصوت قوى وطبيعى ، ووجهها كله عبارة عن ابتسامة . وكانت أحياناً تضحك ، وتكلم نفسها بصوت خفيض . ففرح الأم يكاد يكون فرحاً طفلياً . فقالت الراهبة :

– ها أنت سعيدة . أطيعينى الآن وكفى عن الكلام .

فوضعت فانتين رأسها على الوسادة وقالت لنفسها :

– نعم . ارقدى وكونى عاقلة ما دمت سترين طفلتك . الأخت سمبليس على حق . كل الموجودين هنا على حق .

ثم – من غير أن تتحرك أو تحرك رأسها – أخذت تنظر فى كل اتجاه مفتوحة العينين على سعتهما ، فى فرح ، ولم تقل بعد ذلك شيئاً. فأغلقت الأخت الراهبة عليها ستائرها ، على أمل أن تغفو قليلا.

وفيما بين الساعة السابعة والساعة الثامنة جاء الطبيب . ولم يسمع من الفراش أدنى صوت ، فظن فانتين نائمة ، فدخل بلطف وخفوت ، ودنا من فراشها على أطراف قدميه . وأزاح الستائر ، وعلى ضوء السهارة رأى عينى فانتين الواسعتين الهادئتين تنظران إليه . وقالت له :

— سيدى . إنهم سيسمحون لى أن أرقدها بجوارى فى فراش صغير . أليس كذلك ؟

وظن الطبيب أنها تهذى . وأردفت :

— انظر بنفسك . فهناك مكان كاف لهذا .

وانتحى الطبيب بالأخت سمبليس التى شرحت له الموقف ، وأن المسيو مدلين غائب عن المدينة لمدة يوم أو يومين ، ولم تشأ أن تخيب رجاء المريضة التى تظن أن المسيو مدلين سافر إلى « منمفرمى » ولا أحد يدرى أين سافر بالضبط ، فربما كان حدسها صحيحاً . فأقرها الطبيب على ذلك . واقترب من فراش فانتين التى قالت له :

— إن ذلك سيتيح لى ، كما ترى ، عندما تصحو من نومها فى الصباح أن أقول لها صباح الخير يا قطتى . وفى الليل أسمعها — أنا التى لا أنام — فتستغرق فى النوم . ويفيدنى أن أسمع تنفسها اللطيف .

فقال الطبيب :

— أعطنى يدك .

فمدت ذراعها وصاحت ضاحكة :

— خذ ! أنت طبعاً لا تعرف أنى شفيت . كوزيت تصل غداً.

واستولى العجب على الطبيب . فقد كانت حالتها أحسن بالفعل. فالنبض قد استرد قوته . ونوع من الحياة الطارئة فجأة جدد حيوية هذه المسكينة المنهكة . واستطردت هى :

— سيادة الطبيب . هل قالت لك الأخت الراهبة إن سيادة العمدة سافر لإحضار الطفلة ؟

وأوصى الطبيب بالصمت وتجنب أى انفعال بقدر الإمكان . ووصف دواء ، وإذا ارتفعت حرارتها أثناء الليل تأخذ شراباً مهدئاً. وعند انصرافه قال للراهبة :

— حالتها أحسن. وإذا أسعدنا الحظ وعاد سيادة العمدة بالطفلة ، فمن يدرى؟ هناك أزمات عجيبة الشأن، وقد لوحظت حالات سرور عظيم أوقفت المرض فجأة . وأنا أعرف أنها تعانى من مرض عضوى ، ومتقدم جداً ، ولكن هذه كلها ألغاز ! وربما نجحنا فى إنقاذها .

* * *

الفصل السابع
بعد وصول المسافر اتخذ احتياطات للعودة

كانت الساعة تقارب الثامنة مساء عندما وصلت العربة التى كنا قد تركناها فى الطريق تحت سقيفة باب فندق البريد فى أراس . وعندما نزل منها الرجل الذى تعقبناه حتى هذه اللحظة ، صرف الحصان المستأجر وقاد بنفسه الحصان الأبيض الصغير إلى الإسطبل ، ثم دفع باب قاعة للبلياردو تقع فى الطابق الأرضى ، وجلس هناك ، واتكأ بكوعه على مائدة . وكان قد قضى أربع عشرة ساعة فى هذه الرحلة التى كان قد قدر لها ست ساعات . والتمس لنفسه العذر لأن الذنب فى هذا ليس عليه ، ولكنه فى أعماق نفسه لم يكن غاضباً جداً لهذا التأخير .

ودخلت ربة الفندق .

— أيبيت سيدى ؟ أيتعشى سيدى ؟

وهز رأسه سلباً .

— خادم الإسطبل يقول : إن حصان سيدى مجهد ؟

وعندئذ قطع صمته ، وقال :

— ألن يستطيع الحصان استئناف السير غداً صباحاً ؟

— أوه يا سيدى ! يلزمه على الأقل يومان للراحة .

فسألها :

— أليس ها هنا مكتب البريد ؟

— بلى يا سيدى !

وقادته ربة الفندق إلى ذلك المكتب . وأبرز جواز سفره وسأل : أليست هناك أى وسيلة للعودة فى تلك الليلة نفسها إلى مدينة « م » . بطريق مركبة البريد . فقيل له : إن المكان الذى بجوار السائق شاغر فحجزه ودفع أجره . فقال وكيل مكتب البريد :

— لا تتأخر يا سيدى عن الحضور إلى هنا قبل قيام العربة فى الساعة الواحدة تماماً بالضبط . .

وما إن فرغ من هذا حتى غادر الفندق وشرع فى المشى فى المدينة .

ولم يكن يعرف أراس . والشوارع كانت مظلمة ، وهو يسير خبط عشواء ، على غير هدى . ومع هذا تشبث بألا يستفهم من المارة عن طريقه . وعبر نهر كرنشون Crinehon الصغير ، فألقى نفسه فى متاهة من الحوارى الضيقة التى ضل فيها . ورأى برجوازياً يتمشى ومعه فانوس ، وبعد شىء من التردد قرر أن يسأل هذا البرجوازى ، بعد أن نظر أولا أمامه وخلفه ، كأنه يخشى أن يسمع أحد السؤال الذى سيتفوه به . قال :

— سيدى . سراى العدالة من فضلك ؟

فأجابه البرجوازى الذى كان متقدماً فى السن :

— أنت لست من هذه المدينة يا سيدى . اتبعنى ، فأنا ذاهب

بالذات إلى قرب سراى العدالة ، أى إلى قرب سراى المحافظة . فسراى العدالة الأصلية يجرى الآن إصلاحها ، ولذا تعقد المحاكم جلساتها بصفة مؤقتة فى المحافظة .

فسأله :

– أهناك أيضاً ينظرون الجنايات ؟

– بلا شك يا سيدى .. وفيما مضى كانت هذه المحافظة هى قصر الأسقفية ، قبل الثورة . وقد شيد المسيو دى كونزييه Conzie – الذى كان أسقف أراس فى سنة ١٧٨٢ قاعة كبيرة فيها . وفى هذه القاعة الكبرى تعقد المحكمة .

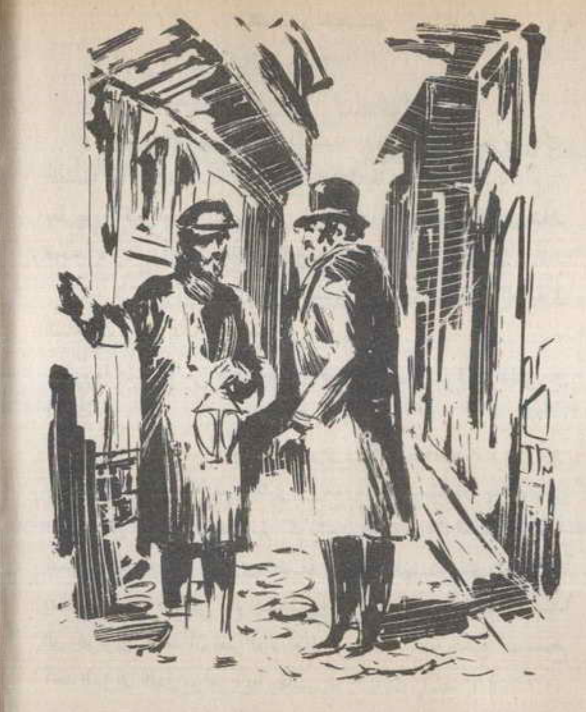
وفى الطريق قال له البرجوازى :

– إن كان السيد يريد حضور قضية بها ، فالوقت متأخر بعض الشيء . فالجلسات تنتهى عادة فى السادسة مساء .

وعندئذ كانا قد وصلا إلى الميدان الكبير ، فأشار له البرجوازى إلى أربع نوافذ طويلة مضاءة فى واجهة بناء كبير معتم ، قال :

– ولكنك وايم الحق يا سيدى وصلت فى وقتك ! إنك لمجدود ! أترى هذه النوافذ الأربع ؟ هذه هى محكمة الجنايات . والنور مضاء . فالجلسة لم تنته إذن . ولابد أن القضية استطالت فعقدوا جلسة مسائية أمهتم أنت بهذه القضية ؟ أهى قضية جنائية ؟ أأنت شاهد ؟

فأجابه :



ورأى برجوازيا يتمشى ومعه فانوس ، وبعد شيء من التردد قرر أن يسأل هذا البرجوازى ..

— لم أحضر بسبب أى قضية . كل ما هناك أنى أريد التحدث إلى محام .

فقال البرجوازى :

— هذه مسألة أخرى . هاك هو الباب . وما عليك إلا أن ترقى السلم الكبير .

واتبع إرشادات البرجوازى ، وبعد بضع دقائق ، ألفى نفسه فى قاعة بها خلق كثير ومجموعات مختلطة من المحامين تتهامس هنا وهناك فى أروابهم .

وإنه لما يقبض القلب دائماً أن يرى المرء هذه الحشود ذات الأردية السوداء ، تتبادل الهمس على عتبات حجرات العدالة . ومن النادر أن تخرج الرحمة من كل هذه الأقوال . وإنما هى فى الغالب تكهنات بالإدانة . وتبدو هذه الجماعات لعين الملاحظ العابر الشارد وكأنها خلايا قاتمة تشيد فيما بينها تلك الصروح المعتمة .

وكانت القاعة الفسيحة ، المضاءة بمصباح واحد ، هى قاعة الانتظار فى قصر الأسقفية القديم . وثمة باب عريض له مصراعان ، كان مقفلا فى هذه اللحظة ، يفصلها عن القاعة الكبرى التى عقدت بها محكمة الجنايات .

وكانت العتمة بحيث إنه لم يخش توجيه الخطاب إلى أول محام صادفه :

— إلى أى مرحلة وصلت القضية ؟

فقال المحامى :

— انتهت القضية .

— انتهت !

وكانت نبرته من الغرابة بحيث التفت إليه المحامى قائلا :

— عفوك يا سيدى . أأنت من الأقارب ؟

— لا . أنا لا أعرف أحداً هنا . وهل صدر حكم بالعقوبة ؟

— بلا شك . لم يكن من الممكن خلاف ذلك .

— بالأشغال الشاقة ؟

— المؤبدة .

فقال مدلين بصوت شديد الخفوت لا يكاد يسمع :

— أثبتت الهوية إذن ؟

فأجابه المحامى :

— أى هوية ؟ لم يكن هناك إثبات هوية . فالقضية بسيطة واضحة . هذه المرأة قتلت طفلها . وثبت عليها ذلك . ونفى المحلفون عنها سبق الإصرار ، فحكم عليها بالسجن مدى الحياة .

فسأله :

— هى إذن امرأة ؟

— بالتأكيد . الفتاة ليموزان Limosin . عن أى شيء كنت تكلمنى إذن ؟

— عن لا شيء . ولكن ما دامت القضية انتهت ، فلماذا ظلت القاعة مضاءة ؟

— لنظر القضية الأخرى التى بدأت منذ نحو ساعتين .

— أى قضية أخرى ؟

— هذه القضية واضحة أيضاً . إنه صعلوك ، مجرم عائد ، كان نزيل الليمان . وقد سرق . وقد نسيت اسمه . وسحنته سحنة قاطع طريق. وأنا مستعد على أساس سحنته هذه فحسب أن أعيده إلى الليمان !

— أليست هناك وسيلة يا سيدى للدخول إلى القاعة ؟

— لا أعتقد هذا . فالزحام كبير ، ولكن الجلسة مرفوعة حالياً ، ولذا خرج بعض الناس منها . ولك أن تحاول عند استئناف الجلسة .

— ومن أين يمكن الدخول ؟

— ومن هذا الباب الكبير .

وغادره المحامى . وفى بضع لحظات كان قد شعر ، فى آن واحد تقريباً ، بكل الانفعالات الممكنة . فكلمات هذا المحامى غير المكترث اخترقت قلبه وكأنها إبر من الثلج وألسنة من النار . ولما عرف أن القضية لم تنته تنفس ، وهو لا يدرى أهو تنفس الارتياح أم الألم .

واقترب من جماعات عديدة وأصغى لما يقال . ولما كان جدول هذا الموسم القضائى مزدحماً ، فقد حدد الرئيس لهذا اليوم بالذات نظر قضيتين بسيطتين وقصيرتين . وبدأ بنظر قضية قاتلة ابنتها ،

والآن حل دور هذا الشقى العائد للإجرام . فهذا الرجل سرق تفاحاً ، وإن لم يكن هذا ثابتاً ضده فيما يبدو : أما الثابت فإنه كان نزيل ليمان طولون . وهذا ما يجعل موقفه سيئاً . وقد انتهى استجواب الرجل وسماع الشهود . وبقيت مرافعة المحامى المنتدب ، ومرافعة النيابة العامة : ولن تنتهى القضية قبل نصف الليل . والمرجح أن المتهم سيدان . فالمحامى العام بارع جداً ، ولا يفلت منه متهم . وهو ذكى نابه يقرض الشعر .

ووجد حاجباً واقفاً بجوار الباب الموصل إلى قاعة الجلسة ، فسأله :

— هل سيفتح الباب عما قريب يا سيدى ؟

فقال الحاجب :

— الباب سوف لا يفتح !

— كيف هذا ؟ ألن يفتح عند إعادة فتح الجلسة ؟ أليست الجلسة مرفوعة ؟

فأجابه الحاجب :

— لقد استؤنف انعقادها منذ هنيهة . ولكن الباب سوف لا يفتح.

— لماذا ؟

— لأن القاعة مكتظة .

— ألم يعد بها مكان ؟

— ولا مكان واحد . لذا فالباب مغلق ، ولن يتمكن أحد من الدخول .

ثم أردف الحاجب بعد لحظة صمت :

— بقى هناك مكانان أو ثلاثة خلف ظهر سيادة الرئيس ، ولكن سيادته لا يسمح بها إلا للموظفين العموميين .

قال له الحاجب هذا ، ثم أدار له ظهره .

وانسحب مدلين خافض الرأس ، فاجتاز حجرة الانتظار ببطء ، وكأنه يشعر بالتردد فى كل خطوة . ولعله كان يتداول مع نفسه . فالمعركة العنيفة التى كانت ناشبة بداخله منذ الليلة الماضية لم تكن قد انتهت . وفى كل لحظة كانت تنتابه تقلبات جديدة فى المشاعر . ولما وصل إلى رأس السلم اتكأ على السياج بظهره وعقد ذراعيه . وفجأة فتح ردنجوته ، وأخرج حافظته ، واستخرج منها قلم رصاص ، وقطع ورقة من دفتر صغير . وكتب بسرعة على هذه الورقة فى ضوء الفانوس هذا السطر :

— مسيو مدلين ، عمدة مدينة « م » .

ثم عاد أدراجه بخطى واسعة وهو يشق الجمع المحتشد ، واتجه مباشرة صوب الحاجب ، وقدم له الورقة وهو يقول له بسلطان :

— احمل هذه إلى سيادة الرئيس .

فتناول الحاجب الورقة ، وألقى عليها نظرة ، وصدع بالأمر .

* * *

الفصل الثـــامن
دخول بطريق الحظوة

وكانت لعمدة « م » شهرة ذائعة — من غير أن يدرى — فنى هذه السنوات السبع من الفضل والفضيلة تجاوزت سمعته الطيبة إقليمه الصغير إلى الأقاليم الثلاثة المجاورة . ففضلا عن أياديه على حاضرة إقليمه بتنشيط صناعة الخرز الأسود فيها ، لم تكن هناك بلدة من المائة والأربعين المحيطة بمدينة « م » إلا وله عليها فضل ما . فقد عرف كيف ينشط الصناعة والتجارة فى تلك البلدان والقرى . فهو مثلا أمد بالضمان المالى صناعة التل فى بولونى Boulogne وصناعة غزل الصوف بالطرق الميكانيكية فى فريفان Frevent والصناعة المائية للأقمشة فى بوربيه سيركانش Bourbers — Sur—Canche ؛ فصار الجميع يلهجون بذكره فى إجلال بكل مكان . بل إن أراس ودويه Douai كانتا تحسدان مدينة « م » الصغيرة على عمدتها المسيو مدلين .

لذا كان مستشار محكمة دويه الملكية الذى يرأس هذه الدائرة الجنائية فى أراس يعرف — كما يعرف سائر الناس — هذا الاسم المبجل من الجميع . فلما فتح الحاجب خلسة الباب المفضى من حجرة المداولة إلى قاعة الجلسة ، وانحنى وراء مقعد الرئيس وسلمه الورقة التى كتب فيها ذلك السطر الذى ذكرناه آنفاً ، قائلا له :

— هذا السيد يرغب فى حضور الجلسة .

بدرت من الرئيس حركة اهتمام واضحة ، وتناول ريشته وكتب بضع كلمات أسفل تلك الورقة وأعادها إلى الحاجب وهو يقول له :

— أدخله .

وكان الرجل التعس الذى نروى قصته قد ظل قرب باب القاعة فى نفس الموضع الذى تركه فيه الحاجب . وسمع — وهو فى شروده — أحداً يقول له :

— هل يتفضل السيد فيولينى شرف المجىء ورائى ؟

وكان هو نفس الحاجب الذى كان قد أولاه ظهره فى اللحظة السابقة ، وإذا به الآن يحييه بالانحناء حتى الأرض . وفى الوقت نفسه سلمه الحاجب الورقة ، فبسطها ، ولما وجد نفسه بالقرب من المصباح استطاع أن يقرأ فيها ما يأتى :

— رئيس محكمة الجنايات يقدم احترامه إلى المسيو مدلين .

فكور الورقة فى يديه ، كأنما هذه الكلمات القلائل لها فى فمه طعم غريب مرير .

وتبع الحاجب .

وبعد بضع دقائق ألفى نفسه فى حجرة يغلب عليها طابع الجهامة ، تضيئها شمعتان على مائدة ذات مفرش أخضر . وكانت لم تزل ترن فى أذنيه آخر كلمات ذلك الحاجب الذى لم يلبث أن غادره :

— سيدى . هاأنت ذا فى حجرة المداولة ، وما عليك إلا أن

تدير الأكرة النحاسية لهذا الباب لتجد نفسك فى قاعة الجلسة وراء مقعد سيادة الرئيس .

واختلطت هذه الأقوال فى تفكيره بذكرى الدهاليز الضيقة ، والسلالم المعتمة التى اجتازها منذ قليل .

وكان الحاجب قد تركه بمفرده . وها هى اللحظة الكبرى قد حانت . فاجتهد أن يستجمع شتاته من غير أن يفلح فى ذلك . ومن دأب خيوط التفكير أن تنقطع فى الوقت الذى يحتاج فيه المرء إلى لم شعثها للربط بين الحقائق الأليمة . وها هو فى نفس الموضع الذى يتداول فيه القضاة ويصدرون أحكامهم . فراح ينظر بهدوء إلى هذه الحجرة الوادعة المسالمة المخيفة فى آن واحد والتى تحطمت فيها حيوات كثيرة . وبعد قليل سيرن فيها اسمه . وها هو مصيره يجتازها فى هذه اللحظة . وحدق فى جدارها ، ثم حدق فى نفسه ، ودهش لوجوده فى هذه الحجرة .

ولم يكن قد تناول طعاماً منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة ، وجسمه مرضوض من أثر ارتجاجات العربة فى الطريق الوعر ، ولكنه لم يشعر بشىء من هذا ، بل خيل إليه أنه لا يشعر بأى شىء .

واقترب من إطار أسود كان مثبتاً فى الحائط ، يضم خلف الزجاج خطاباً قديماً مصوراً لجان نيقولا باش Zean Nicolas Pache عمدة باريس ، والوزير ، مؤرخاً — وهذا خطأ حتماً — فى ٩ يونيو سنة ٢ ، ومن كان يشاهد مدلين وهو يمعن النظر فى هذا الخطاب

كان خليقاً أن يتصور أن هذا الخطاب يبدو له مثيراً للدهشة والفضول ، لأنه لم يحول عنه عينيه ، وقرأه مرتين وثلاثاً . ولكنه كان يقرؤه من غير أن يلقى إليه بالا ، لأنه شارد يفكر فى فانتين ، وكوزيت .

وفى لحظة ما ، بدرت منه إشارة تدل على التمرد ، كأنه يقول :

— ويحى ! ومن ذا يجبرنى على هذا ؟

ثم استدار بقوة ، فرأى أمامه الباب الذى كان قد دخل منه ، فذهب إليه ، وفتحه وخرج منه . وها هو لم يعد فى تلك الحجرة ، بل فى الخارج : فى دهليز طويل ضيق تضيئه مصابيح متفرقة هزيلة أشبه بسهارات المرضى ، وهو بعينه الدهليز الذى كان قد دخل منه ، وتنفس الصعداء ، وأصغى فلم يسمع خلفه صوتاً ، ولا أمامه ، وشرع فى الهرب كأنما كان يطارده أحد .

وبعد أن انعطف فى عدة منحنيات فى ذلك الدهليز ، أصاخ السمع مرة أخرى ، فإذا نفس الصمت ونفس الظلال من حوله . وتسارعت أنفاسه اللاهثة وترنح ، فاتكأ على الجدار . وكانت أحجاره باردة ، وعرقه فى برودة الثلج فوق جبينه ، فانتصب قائماً على قدميه وهو يرتعد .

ووقف وحده تماماً فى هذه العتمة ، يرتعد من البرد ، وربما من شىء آخر أيضاً ، وراح يفكر .

وكان قد فكر طول الليل ، وطول النهار ، ولم يعد يسمع فى أعماقه إلا صوتاً يهيب به :

— واأسفاه !

وانقضت ربع ساعة وهو على هذا الحال ، وأخيراً خفض رأسه ، وتنهد فى كرب ، واسترخت ذراعاه ، وكر راجعاً ، يمشى ببطء كالمتداعى ، وكأنما أدركه شخص ما وهو لائذ بالفرار وعاد به أدراجه .

ودخل مرة أخرى حجرة المداولة . وكان أول ما لفت نظره أكرة الباب . وومضت هذه الأكرة من النحاس اللامع أمام عينيه كالنجم الرهيب . فحدق فيها كما تحدق النعجة فى عين نمر مفترس . ولم تستطع عيناه أن تتحولا عنها .

وما بين حين وحين جعل يخطو خطوة ليقترب من الباب . ولو أصغى لسمع لغط القاعة المجاورة كالهمهمة الغامضة . ولكنه لم يصغ ، ولم يسمع .

وفجأة ، من غير أن يعرف كيف حدث هذا ، ألفى نفسه بقرب الباب ، فقبض على الأكرة بحركة تشنجية ، وانفتح الباب . وإذا به فى قاعة الجلسة .

* * *



ودخل مرة أخرى حجرة المداولة . وكأن أول ما لفت نظره أكرة البـاب . وومضت هذه الأكرة من النحاس اللامع أمام عينيه ..

الفصل التاسع
مكان تتجمع فيه الأسانيد

وخطا خطوة ، وأغلق الباب وراءه بحركة آلية وظل واقفاً ، يتأمل ما تقع عليه عيناه .

وكان المكان قاعة رحبة قليلة الإضاءة ، يسودها الهمس حيناً، ويرين عليها الصمت حيناً آخر . وتدور فيها المحاكمة الجنائية فى وقار حزين متجهم وسط جمع حاشد .

وفى أحد طرفى القاعة ، حيث وقف هو ، جلس قضاة يبـدو عليهم الشرود ، فى أثواب نال منها البلى ، يقضمون أظافرهم أو يسدلون أجفانهم . وفى الطرف الآخر جمع من الناس فى أسمال ، ومحامون فى جلسات متباينة ، وجنود تبدو على وجوههم الصرامة . وبطانة الجدران تتناثر عليها اللطخ ، والسقف قذر ، والموائد عليها أغطية من قماش أقرب إلى الصفرة منه إلى الخضرة ، والأبواب قد سودها كثرة احتكاك الأيدى ، وقناديل ينبعث منها الدخان أكثر مما ينبعث منها الضوء . وعلى الموائد شموع فى شمعدانات من النحاس الأصفر . ورغم العتمة والقبح والكآبة كانت تسود القاعة مسحة من الصرامة المهيبة ، لأن المرء يشعر فيها بذلك الشىء البشرى الجليـل الذى يسمونه القانون ، وذلك الشىء الإلهى الذى يسمونه العدالة .

ولم ينتبه إليه فى هذا الحشد من الناس أحد ، فجميع الأنظـار

كانت متجمعة فى نقطة واحدة ، بها مقعد طويل من الخشب مرتكن
إلى باب صغير ، على امتداد الجدار الذى عن يسار رئيس الجلسة .
وفوق هذا المقعد – الذى كانت تضيئه عدة شموع – جلس رجل
فيما بين شرطيين .

وكان هذا الرجل ، هو « الرجل » الذى يحاكمونه .

ولم يبحث مدلين عنه . بل رآه . فقد اتجهت إليه عيناه بصورة
طبيعية ، كأنما كانتا تعرفان سلفاً أين يوجد .

وحسب أنه يرى نفسه ! وقد شاخ . ولئن لم يكن شبيهه فى الوجه
تماماً، فهو شبيهه فى السحنة واللفتة، بشعره المشوش، وإنسانى عينيه
الوحشيين القلقين ، وهذا القميص . فهو هكذا تماماً كان يوم دخل
مدينة « د » . طافح القلب بالكراهية والحقد ، وملء نفسه الأفكار
الشريرة التى ظل تسعة عشر عاماً يجمعها ويختزنها فى الليمان .

فقال لنفسه وهو يرتجف :

– يا إلهى ! أهكذا حقاً سأعود أنا أيضاً ؟

وبدا له أن سن الرجل لا تقل عن ستين سنة ، وفيه فظاظة
وغباء وشراسة .

وكان الجالسون خلف الرئيس قد أفسحوا له مكاناً عندما دخل
من الباب ، واستدار الرئيس برأسه ، وأدرك أن الشخص الذى
دخل هو المسيو مدلين عمدة « م » . وحياه برأسه ، وعرفه المحامى العام
الذى كان قد رأى المسيو مدلين فى مدينة « م » . فى مرات كثيرة

عندما دعته مهام عمله للذهاب إلى هناك ، فحياه . أما هو فلم يكد
يلحظ شيئاً من هذا كله ، فقد كان فريسة لضرب من الرؤى المختلطة
كأنها الهلوسة ، فراح ينظر أمامه . وإذا قضاة ، وكاتب جلسة ،
وشرطة ، وزحام من رءوس تثير الفضول بقسوة . وكان قد رأى
مشهداً كهذا فيما مضى ، منذ سبعة وعشرين عاماً . وها هى هذه
الصور الرهيبة تلوح له مرة أخرى ، وتتحرك معلنة عن وجودها
العينى . فهى إذن ليست جهداً من ذاكرته ، أو سراباً من تفكيره ،
فما يراه أمامه شرطة حقيقيون وقضاة حقيقيون، وحشد من رجال
حقيقيين من لحم ومن عظام . قضى الأمر ، وها هو يرى مشاهد
ماضيه الفظيعة حية من جديد بكل فظاعة الواقع الحقيقى .

كان هذا كله فاغراً أمامه .

واستولى عليه منه فزع ، فأغمض عينيه ، وصرخ من أعمق
أعماق نفسه :

– أبداً ! لن يكون هذا .

وبلعبة مأسوية من ألاعيب القدر التى تزلزل جميع أفكاره ،
وتكاد تصيبه بالخبال ، كان القائم أمامه نسخة منه ! فالرجل الذى
يحاكمونه يناديه الجميع جان فلجان .

فما تحت عينيه منظر لم يسمع بمثله أحد ، هو نسخة من اللحظة
التى كانت أفظع لحظات حياته ، كأنها شبح ذلك الماضى .

فكل شىء كان هناك : نفس الجهاز ، ونفس الساعة من الليل ،

وتقريباً نفس وجوه القضاة والجنود والحاضرين . وكل ما هناك أنه رأى الآن فوق رأس رئيس الهيئة صليباً ، وهو شيء لم يكن له وجود فى المحاكم حين حوكم هو . فحينما حوكم هو كان الله غائباً !

ووجد وراءه كرسياً ، فارتمى فوقه ، مرتعباً من أن يراه أحد وهو واقف . ولما جلس استغل كومة من الورق المقوى كانت فوق مكتب القضاة ليخفى وراءها وجهه عن القاعة بأسرها . وصار فى استطاعته الآن أن يرى من غير أن يُرى . وعاد بكليته إلى الوعى بالواقع ، إلى أن استقر فيه تماماً . ووصل إلى تلك المرحلة من الهدوء الذى يستطيع فيها المرء أن يصغى .

وكان المسيو بماتبوا فى عداد المحلفين .

وفتش عن جافير ، ولكنه لم يره . وكان مقعد الشهود الطويل محجوباً عنه وراء منضدة كاتب الجلسة . ثم إن القاعة — كما قلنا — كانت قليلة الضوء .

وفى اللحظة التى دخل فيها ، كان محامى المتهم يختم مرافعته . وكان اهتمام الجميع قد استثير إلى درجة كبيرة . فالقضية كانت منظورة منذ ثلاث ساعات . ومنذ ثلاث ساعات كان هذا الجمع كله يرى الاتهامات تكال وتطبق شيئاً فشيئاً على رجل مجهول بائس بادى الغباء ، أو لعله شديد البراعة . وهم يعرفون من قبل أن هذا الرجل متشرد ضبط فى حقل وفى يده غصن مثقل بالتفاح الناضج ،

منزوع عنوة من شجرة تفاح فى بستان مجاور ، يسمونه بستان بييرون Pierron . فمن كان هذا الرجل ؟

لقد أجريت تحريات ، وسمعت أقوال شهود ، وقد أجمع الكل على حقيقة تجلت من كل وجهات النظر . وقال الاتهام :

— إن الذى تحت يدنا ليس مجرد سارق تفاح ، أو متشرد ، بل تحت يدنا عنا قاطع طريق ، وخريج ليمان ، ومجرم عتيق من أشد المجرمين خطراً . إنه شرير اسمه جان فلجان تبحث عنه العدالة منذ زمن طويل . وكان منذ ثمانى سنوات ، عند خروجه من ليمان طولون قد اقترف سرقة فى الطريق العام بالقوة من طفل من أبناء سافوا اسمه حرفيه الصغير ، وهى جريمة تقع تحت طائلة المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، ونحتفظ بالحق فى محاكمته عنها فى وقت لاحق ، بعد ان تثبت هويته ثبوتاً قضائياً . وقد ارتكب بموجب هذه السرقة الجديدة ما يعد « عوداً » . فأدينوه بالفعلة الجديدة وسوف يحاكم فيما بعد عن السرقة القديمة .

وأمام هذا الاتهام ، وأمام إجماع الشهود ، أبدى المتهم دهشة بالغة : وراح يقوم بإشارات وحركات تعنى النفى . أو يتأمل سقف القاعة . وكان يتكلم بصعوبة ، ويجيب بارتباك ، ولكنه من رأسه إلى قدميه كان ينكر ما قيل عنه . فكان أشبه بالأبله فى مواجهة كل هذه العقول المحتشدة أمامه للقتال ، وأشبه بالأجنبى الغريب وسط مجتمع يضيق عليه الخناق . ولكن هذا الذى يحدث يتعلق به مستقبله ،

وها هو شبيه يطبق عليه فى كل لحظة ، وها هو الجمهور المحتشد يتطلع بلهفة وقلق إلى ذلك الحكم بالإدانة الذى يحدق به رويداً رويداً . وقد يكون هذا الحكم بما هو أكثر من الليمان ، فيحكم عليه بالإعدام ، إذا ثبتت هويته وانتهت قضيته .رئيه الصغير ، فيما بعد بالإدانة .

فمن تراه كان هذا الرجل ؟ وما كنه هذا الذهول غير المبالى الرائن عليه ؟ أبلاهة هى دعته أم مكر ؟ أكان يفهم ما يدور حوله أكثر مما يجب ، أم تراه لا يفهم منه شيئاً على الإطلاق ؟
أسئلة انقسم الجمهور الحاضر حولها ، وتكاد تقسم آراء المحلفين أيضاً . ففيها ما يفزع وما يحير . والمأساة ليست قاسية فحسب ، بل هى غامضة أيضاً .

وكانت مرافعة الدفاع لا بأس بها . فى أسلوب قضائى تقليدى كان يجرى على لسان جميع المحامين يومئذ فى باريس كما فى الأقاليم ، ثم بطل بعد ذلك استخدامه .

وقد بدأ المحامى بتناول تهمة سرقة التفاح وراح يفسرها ، فأثبت أن سرقة هذا التفاح لم تثبت على المتهم — الذى كان المحامى يدعوه « شانماتييه » بإصرار — فهو لم يشاهده أن يتسور ذلك البستان أو يكسر هذا الغصن ، بل قبض عليه ممسكاً بهذا الغصن (الذى كان المحامى يسميه « فرعاً ») وقال : إنه وجده ملقى على أرض الطريق فالتقطه . فمن أين للنيابة الدليل المناقض لهذا ؟ ولئن كان مما لا شك فيه أن هذا

الغصن كان قد كسر وسرق بعد تسلق السور ، ثم ألقاه اللص فى عرض الطريق عندما أفزعه طارئ ما ، فهذا دليل على وجود سارق . ولكن ما الدليل على أن هذا السارق هو شانماتييه ؟
ليس هناك — فى يد النيابة — إلا دليل واحد ، أو قرينة ، هى أن شانماتييه نزيل سابق لليمان . ولم ينكر المحامى أن هذه الصفة قائمة لسوء الحظ فيما يبدو . كذلك كان المتهم مقيماً لفترة من الزمن فى فافيرول ، وكان أيضاً مشتغلا بتشذيب الأشجار وتقليمها . ومن الممكن أيضاً أن يكون الأصل فى اسم شانماتييه هو « جان ماتييه » ، هذا كله صحيح . وأخيراً هناك أربعة شهود قرروا أن شانماتييه هو نزيل الليمان جان فلجان . وأمام هذه القرائن والشهادات لم يستطع المحامى أن يقدم إلا إنكار موكله ، وهو إنكار مغرض هو فيه صاحب مصلحة . ولكن على فرض أنه نزيل الليمان السابق جان فلجان ، أذلك يثبت أنه سارق التفاح ؟ إن هذه التهمة استنتاج فرضى على الأكثر ، وليست ثابتة بالدليل القاطع .

وصحيح أيضاً أن المتهم — وبذلك اعترف محاميه بحسن نية — اتبع سياسة سيئة للدفاع عن نفسه ، بإصراره على الإنكار التام لكل شىء ، أى إنكار السرقة وأنه نزيل سابق بالليمان . وكان اعترافه بالشق الأخير أفضل له ، لأنه يكفل له عدم تشدد قضاته معه . وكان المحامى قد نصحه بهذا فعلا ، إلا أن المتهم رفض بإصرار ، معتقداً أنه ينقذ كل شىء بإنكاره كل شىء . وهذا خطأ . ولكن ألا ينبغى أن تراعى

المحكمة قصور تفكيره الواضح ؟ فهذا الرجل من الجلى البين أنه غبى ذهب بذكائه طول الشقاء والمعاناة فى الليمان ، وطول الشقاء والمعاناة خارج الليمان ... إلخ ...

لقد أساء الدفاع عن نفسه . ولكن أهذا سبب كاف لإدانته ؟ وأما مسألة جرفيه الصغير ، فالمحامى لم يتعرض لها ، فهى ليست عنصراً من عناصر هذه القضية . وختم المحامى مرافعته بالتوسل إلى المحلفين وهيئة المحكمة ، إن بدت لهم هوية جان فلجان بينة أن يطبقوا عليه عقوبات الشرطة التى تنصب على المفلتين من الرقابة بعد مغادرة السجن ، لا عقوبة المجرم العائد بالغة القسوة .

وانبرى المحامى العام (ممثل الاتهام) للرد والتعقيب على المحامى : فكان فى تعقيبه مزخرف الأسلوب عنيفاً ، كعادة أمثاله من المحامين العامين .

بدأ بتهنئة الدفاع على إخلاصه وولائه وتحريه الصدق ، ولكنه استغل هذا الولاء وهذا التحرى للصدق ، فهاجم المتهم بكل التنازلات التى أدلى بها المحامى . فالمحامى بدا عليه أنه مسلم بأن المتهم هو جان فلجان ، فتمسك المحامى العام بهذا ليؤكد أنه فعلا جان فلجان . وجعل من ذلك قضية مسلمة للاتهام لا محلّ للنزاع أو المراء فيها . وتأدى المحامى العام من هذا إلى الكلام عن الطبائع الإجرامية وطنطن بالهجوم على المدرسة الرومانسية (التى تقول : إن الإنسان يولد خيراً بطبعه وإنما هى ظروف البيئة التى تجعله يخطئ ويفعل الشر)

وندد بآثار هذا الأدب الرومانسى الوبيلة ، وجعل من بينها جريمة شانماتييه ، أو بالأحرى جان فلجان . ولما فرغ من هذه الاعتبارات انتقل إلى جان فلجان نفسه . فمن هو جان فلجان هذا ؟

ووصف جان فلجان بأنه وحش ضار ، وما إلى ذلك من النعوت التى جعلت جمهور الحاضرين والمحلفين يقشعرون من هولها . ولما فرغ من هذا الوصف اندفع فى مرافعة قصد بها إلى التأثير فى صحيفة الإقليم صباح الغد ، قائلا :

– ومثل هذا الرجل المتشرد الأفاق المتسول الذى لا مورد يتعيش منه :.. إلخ الذى اعتاد فى حياته الماضية الأعمال الإجرامية ، ولم تصلح منه إقامته الطويلة فى الليمان ، كما تدل على هذا جريمته التى اقترفها ضد جرفيه الصغير إلخ ... هذا الرجل الذى وجدوه على قارعة الطريق متلبساً بالسرقة ، على قيد خطوات من جدار تسوره ، ولم تزل فى يده مسروقاته ، ينكر حالة التلبس ، والسرقة ، وتسلق الجدار . بل ينكر كل شىء ، حتى اسمه وهويته نفسها ! وبالإضافة إلى مائة دليل لن نكرر ذكرها الآن تعرف عليه أربعة شهود ، أولهم « جافير » ، مفتش الشرطة النزيه جافير ، ثم ثلاثة من رفاقه القدامى فى الإجرام ، هم نزلاء الليمان بريفيه ، وشنلدييه ، وكوشباى . فما الذى يقدمه لينقض هذا الإجماع الدامغ ؟ الإنكار ! فأى عناد ومكابرة هذه ! وإنكم لتعدلون ياحضرات المحلفين ...إلخ .

وفيما كان المحامى العام يتكلم ، كان المتهم مصغياً فاغر الفم ،

بنوع من الدهشة يشوبه شيء من الإعجاب بهذا التدفق . فلا ريب فى أنه كان شديد العجب لأن رجلا يسعه أن يتكلم على هذا النحو الطلق . وبين الحين والحين ، فى أشد اللحظات مأسوية من مرافعة الاتهام ، وهى اللحظات التى تدفقت فيها بلاغة المحامى العام بطوفان من النعوت القبيحة التى أطبقت على المتهم كالعاصفة ، كان يهز رأسه ببطء يمنة ليسرة ويسرة ليمنة ، فى شيء من الاحتجاج الصامت الحزين الذى اكتفى به منذ بداية المرافعات . ومرتين أو ثلاثاً سمعه أقرب الحاضرين إلى موضعه يقول بصوت خافت :

– هذه هى نتيجة عدم طلب المسيو بالو Baloup !

ولفت المحامى العام نظر الدفاع إلى هذا المسلك الذاهل، وقال : إنه متعمد قطعاً ، فهو لا يدل على البلاهة ، بل على البراعة والمكر وتعود خداع العدالة . فهذا المسلك يفضح بأجلى بيان كل ما ينطوى عليه هذا الرجل من انحراف شنيع فى جبلته .

وختم كلامه باحتفاظه بحقه مستقبلا فى محاكمه المتهم عن جريمته ضد جرفيه الصغير ، ثم طلب تشديد العقوبة .

وكانت هذه العقـوبة – فى ذلك الحين – هى الأشغال الشـاقة المؤبدة .

ونهض الدفاع ، فبدأ بتهنئة « سيادة المحـامى العـام » على كلمته الرائعة فى بلاغتها ، ثم رد عليه على قدر إمكانه . فكان واضحاً أن موقفه ضعيف ، وأن الأرض كانت تغوص تحت قدميه .

الفصل العـاشر
طريقة الانكار

وحلت لحظـة إقفـال باب المرافعات . فأوقف الرئيس المتهم ووجه إليه السؤال المعتاد :

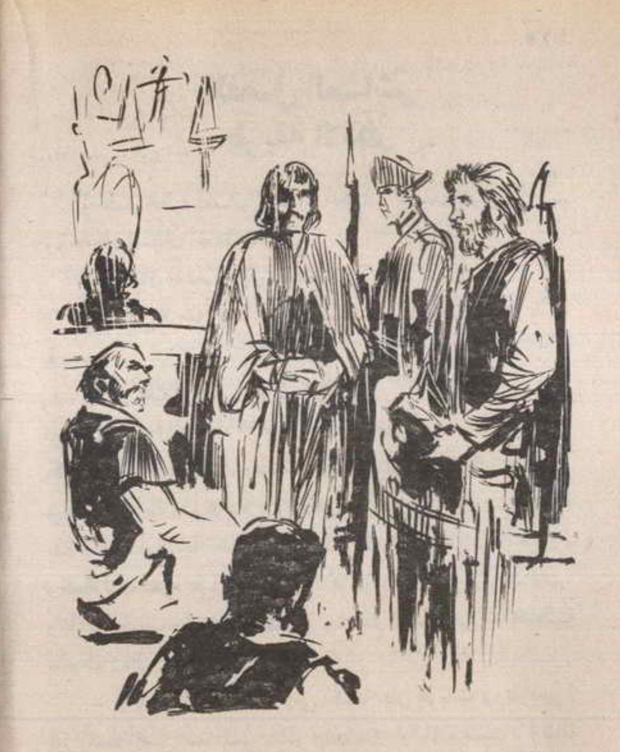
– ألديك ما تضيفه إلى دفاعك ؟

وبدا على الرجل وهو واقف يفرك بين يديه قلنسوة زرية أنه لم يسمع .

وكرر عليه الرئيس السؤال .

وفى هذه المرة سمعه الرجل . وبدا أنه فهم . وبدرت منه حركة كمن يستيقظ من سبات ، ودار بعينيه فيما حوله ، ونظر إلى الجمهور ، وجنود الشرطة ، ومحاميه ، والمحلفين ، والمحكمة ، ووضع قبضة يده الرهيبة فوق حافة السياج القائم أمام مقعده ، ونظر مرة أخرى ، وفجأة ثبت نظره على المحامى العام ، ثم شرع فى الكلام كالطوفان ، وكأنمـا الكلمات والعبارات تتزاحم وتتدافع لتتدفق من فمه مختلطـة مشوشة . قال :

– أريد أن أقول هذا . إننى كنت نجار عربات فى باريس . بل كنت أعمـل عند المسيو بالو Baloup . والحالة ضنك ، وشاقة فى مهنة نجار العربات . العمل يجرى دائماً فى الهواء الطلق ، فى الأفنية أو تحت سقوف الورش التى لا جدران لهـا ، عند المعلمين الكبار ،



وفجأة ثبت نظره على المحامى العام ، ثم شرع فى الكلام كالطوفان وكأنما الكلمات والعبارات تتزاحم وتتدافع لتتدفق فى فمه ..

ولكن لا توجد فى المهنة ورش مقفلة ، لأنها تحتاج إلى مساحات كبيرة . فاهم ؟ فى الشتاء نحس بشدة البرد ، حتى أننا نضرب أذرعنا كى تستدفئ . لكن المعلمين لا يريدون هذا ، ويقولون إنه يضيع الوقت . وتشكيل الحديد عندما يغطى الثلج الأرض ، عملية شاقة .. سرعان ما تستهلك صحة العامل . فيشيخ وهو لم يزل بعد شاباً فى هذه المهنة . ففى سن الأربعين يكون قد انتهى . وأنا كنت فى الثالثة والخمسين ، قد اشتدت على العلة . ثم إن العمال أشرار جداً ! فما إن يتجاوز أحد الشباب حتى يقول عنه الجميع إنه دابة عجوز ! ولذا لم أعد أكسب إلا ثلاثين صلدياً فى اليوم ، لأنهم كانوا يعطوننى أقل أجر ممكن ، فالمعلمون يستغلون كبر سنى . يضاف إلى هذا أن ابنتى كانت غسالة فى النهر . فكانت تكسب من جانبها بعض الشىء . تضعه فوق أجرى ونعيش معاً عيشة الكفاف . وانتابها المرض هى الأخرى ، لأنها تقضى طول النهار فى قادوس حتى منتصف قامتها ، تحت المطر ، والثلج ، والريح التى تهرأ الوجه . ويتساقط الثلج ، وتجمد المياه . لا أهمية لهذا . لابد من مواصلة الغسل . فهناك أشخاص لا يملكون ثياباً داخلية كثيرة ، ولابد من غسل ثيابهم فوراً وإلا تحولوا إلى متعهد آخر . وألواح الخشب ليست محكمة الالتصاق ، والماء ينزل منها فوقك فى كل موضع . وينفذ من خلال الثياب . وعملت ابنتى أيضاً فى مغسل الأطفال الحمر ، حيث يصل الماء فى صنابير ، ولا يجرى العمل فى قادوس ، بل تقوم بالغسل أمامها تحت الصنبور ،

وتشطف خلفها فى حوض ، ولما كان هذا المكان مقفلا ، فالجسم أقل تعرضاً للبرد . ولكن هنـاك بخار المـاء الساخن وهـو فظيع ، ينتهى بإصابتك بالعمى . وكانت تعود فى السابعةمساء وتنام بسرعة ، لأنها مجهدة جداً . فيضربها زوجها . وماتت . ولم نكن سعداء جداً . كانت فتاة صـالحة ، لا تذهب إلى المرقص ، وشديدة الهـدوء . وأتذكر أنها نامت ليلة الكرنفال فى يوم عيد المرافع فى الساعة الثامنة . وهذه هى الحقيقة . ويمكنكم أن تسألوا عنى . تسألون ؟ كم أنا غبى ! باريس دوامة كبيرة ، من ذا فيها يعرف الأب شانماتييه ؟ ولكنى ذكرت لكم المسيـو بالو . ابحثوا لدى المسيو بالو . أما بعد هـذا فلا أعرف ماذا يراد منى .

وسكت الرجل وظل واقفاً . وكان قد قال هذا بصوت مرتفع سريع أجش ، وبسذاجة ساخطة ضارية . وكان قد توقف وسط الكلام لكى يحيى شخصاً ما بين الجمع المحتشد . والتأكيدات التى كان تبدو عليه أنه يلقيها اعتباطاً أمامه ، فتخرج من فمه وكأنما أصيب بالفواق ، ويلوح بيده بإيماء كإيماء الحطاب الذى يفلق الخشب . ولما سكت انفجر الجمهور ضاحكاً ، فتطلع إليه ، ولما وجـد الناس يضحكون ، ولم يفهم السبب ، شرع يضحك هو أيضاً .

وكان هذا فى حد ذاته فاجعاً .

ورفع الرئيس المنتبه الطيب صوته وقال مذكراً السادة المحلفين : إن السيد بالو ، وهو المعلم السابق الذى قال المتهم إنه كان يعمل

عنده لم يمكن العثور عليه ، لأنه أفلس وترك محل إقامته القديم . ثم التفت نحو المتهم وطلب منه أن يصغى لما سيقوله له ، ثم أردف :

— أنت فى موقف يوجب عليك التفكير ، فالريب الخطيرة محدقة بك من كل جانب، ويمكن أن تتمخض عن أخطر النتائج . لذا أناشدك أيها المتهم للمرة الأخيرة أن تفسر بوضوح هاتين الواقعتين . أولا : هل تسلقت سور بستان بيرون أم لا ؟ وكسرت الغصن ، وسرقت التفاح ؟ أى هل اقترفت جريمة السرقة مع التسلق ؟ وثانياً : هل أنت نزيل الليمان السابق جان فلجان أم لا ؟

فهز المتهم رأسه باقتـدار ، شأن الرجـل الذى أحسن الفهم ويعرف بمـاذا سيجيب . وفتح فمه ، واستدار نحو الرئيس ، وقال :

— أولا ...

ثم لم يلبث أن نظر إلى قلنسوته القذرة فى يده ، ونظر بعـد هذا إلى السقف ولاذ بالصمت .

وقال المحامى العام بصوت صارم :

— أيها المتهم . ركز اهتمامك . فأنت لا تجيب عن شىء مما سئلت عنه . فاضطرابك يدينك . فواضح أن اسمك ليس شانماتييه ، وأنك نزيل اللمان السابق جان فلجان الذى استخفى أولا تحت اسم جان ماتييه وهـو اسم عائلة أمه ، وأنك ذهبت إلى أوفرنى Auvergne وأنك من مواليد فافيرول حيث كنت تعمل فى تقليم الأشجار . وواضح

أنك سرقت مع التسلق تفاحاً ناضجاً من بستان بيبرون . وسيتولى السادة المحلفون تقييم موقفك .

فانتهى الأمر بالمتهم الذى كان قد جلس بالوقوف فجأة بعد أن فرغ المحامى العام من كلامه ، وصاح به :

ـ أنت شرير ! أنت خبيث ! هـذا ما أردت قـوله ! فأنا لم أجد ما أقوله أولا . فأنا لم أسرق . أنا رجل لا يجد فى كل يـوم ما يأكله . وكنت قادماً من آيى Ailly ، وأمشى فى الريف بعد سقوط المطر الذى كسا الريف كله باللون الأصفر . وطفحت المستنقعات ، ولم أجد فى الرمال إلا أعواد عشب على حافة الطريق وإذا بى أجد غصناً مكسوراً ملقى على الأرض وبه تفاح ، فالتقطت الغصن من غير أن أعرف أنه سيسبب لى الألم والعقاب . ولى فى السجن ثلاثة أشهر ، وهم يجرجروننى من حجرة لأخرى ولا أستطيع أن أقول شيئاً والكل يتكلمون ضدى ، ويقال لى : أجب ! والشرطى الطيب القلب يدفع فى كوعى ويقول لى بصوت خافت : « أجب » . وأنا لا أستطيع التفسير ، فأنا لم أتلق تعليماً . أنا رجل فقير مسكين . ومن الخطأ ألا تروا هذا بأنفسكم . وأنا لم أسرق . أنا التقطت من الأرض أشياء كانت ملقاة عليها . وأنتم تقولون : جان فلجان . وجان ماتييه ! وأنا لا أعرف هذين الشخصين . فهما من القرويين . وأنا كنت أعمل عند المسيو بالو ، فى شارع المستشفى . واسمى شانماتييه . ومن خبثكم أنكم تذكرون لى أين ولدت . أما أنا

فلا أعرف أين ولدت . فليس لجميع الناس بيوت يولدون فيها . لو أن هذا كان صحيحاً لكان شيئاً مريحاً أكثر مما يجب . وأعتقد أن أبى وأمى كانا من الذين يجوبون الطرقات . ولا أعرف عنهما أكثر من هذا . وعندما كنت طفلا كانوا يسموننى الصغير . والآن يسموننى الشيخ . وهذان هما اسماى فى العماد . وافهموا من هـذا ما تشاءون . وقد كنت فى أوفرنى ، وكنت فى فريفول . طظ ! وماذا فى ذلك ؟ أليس فى وسع المرء أن يكون فى أوفرنى وأن يكون زمناً ما فى فافيرول من غير أن يكون سابقاً من نزلاء الليمان ؟ قلت لكم : إنى لم أسرق ، وإنى الأب شانماتييه . وكنت أعمل لدى المسيو بالو . وكان لى عندئذ محل إقامة . ولكنكم تسئموننى بتهريفكم هذا . فلماذا يناصبنى الجميع العداء بكل هذا الإصرار ؟

وكان المحامى العام قد ظل واقفاً ، فقال للرئيس :

ـ سيدى الرئيس ! أمام كل هذا الإنكار المختلط ، ولكن فى براعة شديدة ، من جانب المتهم الذى كان يريد من قبل أن يبدو لنا فى صورة الأبله ، ولكنه لن يتمكن من هذا ـ وها نحن نخدره ـ لذا نكرر على المحكمة الموقرة طلب إعادة سماع السجناء بريفيه ، وكوشباى وشنلدييه ومفتش الشرطة جافير ، وسؤالهم للمرة الأخيرة عن هوية المتهم لإثبات أنه نزيل الليمان السابق جان فلجان .

فقال الرئيس :

ـ أود أن أنبه السيد المحامى العام إلى أن مفتش الشرطة جافير

قد اضطرته أعمال منصبه للذهاب إلى مركز مجاور ، فغادر الجلسة ، والمدينة بأسرها بمجرد انتهائه من إدلائه بشهادته ، وقد أذنا له فى هذا بعد موافقة سيادة المحامى العام ومحامى المتهم .

فقال المحامى العام :

— هذا صحيح يا سيادة الرئيس . وفى غيبة السيد جافير ، أعتقد أننى يجب أن أذكر السادة المحلفين بما قاله هنا منذ بضع ساعات . وجافير رجل فاضل يؤدى أعباء وظيفته الصغيرة بنزاهة وصرامة . وإليكم ألفاظ شهادته : « لست بحاجة إلى سرد الافتراضات الخلقية ولا الأسانيد المادية التى تكذب إنكار المتهم . فأنا أعرفه تماماً . وهذا الرجل ليس اسمه شانماتييه ، بل هو نزيل سابق بالليمان بالغ الخطر والشر واسمه جان فلجان . ولم يطلق سراحه عند انتهاء فترة عقوبته إلا على مضض شديد . وقد أمضى تسعة عشر عاماً من الأشغال الشاقة بسبب السرقة التى ضبط متلبساً بها . وقد حاول الهرب خمس مرات أو ستاً . وفضلا عن سرقة جرفيه الصغير وسرقة بستان بييرون ، ارتاب فى ارتكابه السرقة من بيت عظمة أسقف د . الراحل . وقد رأيته كثيراً فى الفترة التى عملتها مساعداً لمأمور ليمان تولون . وأكرر لكم أنى أعرفه تمام المعرفة » .

وبدا أن هذا الإعلان الدقيق المحدد كان له تأثير عميق على الجمهور والمحلفين . ثم قال المحامى العام بعد ذلك : إنه لئن لم يكن جافير حاضراً ، فالسجناء الثلاثة بريفيه وشنلدييه وكوشباى ستسمع

شهادتهم من جديد . ويتم استدعاؤهم . وأصدر الرئيس أمره إلى أحد الحجاب ، وإن هى إلا لحظة حتى فتح باب حجرة الشهود . وأدخل الحاجب ، ومع حارس من الشرطة مستعد للتدخل بالقوة عند اللزوم ، المذنب بريفيه . وكان الجمهور مشدود الأعصاب ، والصدور تعلو وتهبط ، كأنما هى صدور نفس بشرية واحدة .

وكان المذنب بريفيه فى نحو الستين من عمره ، له سحنة رجل أعمال ونظرات وغد ... وهما سمتان قد تتوافقان أحياناً . وقد رشحه سلوكه الماكر فى السجن المركزى للقيام بعمل البواب . وتقارير رؤسائه عنه أنه رجل يحرص على أن يكون ذا نفع . وقسوس السجن لهم رأى حسن فى تدينه . وينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أن ذلك كان على عهد إعادة الملكية إلى فرنسا .

وقال الرئيس :

— يا بريفيه . أنت محكوم عليك بعقوبة مخلة بالشرف ولا يمكنك أن تحلف اليمين .

فغض بريفيه بصره . واستطرد الرئيس :

— ومع هذا ، فمن الجائز للرجل الذى حط القانون من مقامه ، إذا كانت له بقية من التقوى ، أن ينطوى على إحساس بالشرف والعدالة . وأنا أناشد هذا الإحساس فيك فى هذه الساعة الفاصلة ، إن كان له وجود ، أن تتأنى قبل أن تجيب . تأمل سحنة هذا الرجل الذى يمكن أن تودى به كلمة واحدة منك ، أو أن تبرئ ساحته .

إن هذه اللحظة حاسمة ، ولم يزل أمامك متسع من الوقت للتراجع عن أقوالك إذا تبين لك أنك كنت مخطئاً . أيها المتهم قف ! — انظر يا بريفيه جيداً إلى المتهم واستجمع ذاكرتك ، وقل لنا بوحى من ذمتك وروحك : هل تصر على أن هذا الرجل هو زميلك القديم فى الليمان ، جان فلجان ؟

وتطلع بريفيه إلى المتهم ، ثم التفت صوب المحكمة وقال :

— نعم يا سيدى الرئيس. أنا أول من عرفه وأصر على أقوالى . هـذا الرجل هو بعينه جان فلجـان ، الذى دخل ليمـان تولون فى سنة١٧٩٦ وخرج منه فى سنة ١٨١٥ ؛ وخرجت أنا فى السنة التالية . ولئن بدا الآن بهذه الصورة الزرية ، فلابد أنه فعل السن . أما فى الليمان فكان خبيثاً داهية . أجل أعرفه بالتأكيد .

فقال الرئيس :

— اذهب واجلس . ابق واقفاً أيها المتهم .

وأدخل شنلدييه ، المحكوم عليه بالمؤبد ، كما تدل على هـذا كسوته الحمراء وقلنسوته الخضراء . وهو يقضى عقوبته فى ليمـان تولون ، الذى أخرجوه منه لهذه القضية خصيصاً . وهو رجل قصير فى نحو الخمسين من عمره ، نشط ، يقظ، نحيف ، أصفر ، كالمحموم، يسرى الضعف فى كل أعضائه ، ولكن فى نظرته قوة هائلة . وقد لقبه رفاقه فى الليمان « جنيدييه » Jenie Dieu (أى أنا أنكر وجود الله !) .

وقال له الرئيس كلاماً يقارب أقواله لبريفيه . وعندما ذكره الرئيس بأن إدانته تحرمه من حق أداء اليمين ، رفع شنلدييه رأسـه وواجه الجمهور بنظراته . ودعاه الرئيس للتيقظ ، وسأله — كما سأل بريفيه — هل يصر على معرفة المتهم ؟

فقهقه شنلدييه ضاحكاً وقال :

— وايم الله ! هل أعرفه ؟ لقد قضينا خمس سنوات مشدودين بسلسلة واحدة .

فقال الرئيس :

— اذهب واجلس .

وجاء الحاجب بكوشباى ، وهو محكوم عليه بالمؤبد أيضـاً ، فحضر من الليمان فى كسوة حمراء مثل شنلدييه . وهو فلاح من لورد ، وفيه وحشية سكان جبال البرانس . وكان يشتغل برعى الأغنـام فى الجبل ، ثم ترك الرعى إلى القرصنة وقطع الطريق . وبدا أنه لا يقل غباء عن المتهم . فهو من البشر المساكين الذين ربتهم الطبيعة وحوشاً ضارية ، وحولهم المجتمع إلى نزلاء ليمـان .

وحاول الرئيس أن يهز هذا الشاهد ببضع عبارات مؤثرة جادة مهيبة ثم سأله ، كما سأل سابقيه ، هل يصر ، بلا تردد أو اضطراب على معرفة الرجل الواقف أمامه ، فقال كوشباى :

— إنه هـو جان فلجان . حتى ولو سمـوه جان « العفريتة » ، بسبب قوته الخارقة !

فسببت كل هذه التأكيدات الثلاثة المخلصة ، وبحسن نية ، لدى جمهور الحاضرين همهمة تنذر المتهم بالشؤم ، وأخذت هذه الهمهمة ترتفع مع كل شهادة جديدة . أما المتهم فكان يصغى بسحنة ناطقة بالدهشة ، كانت النيابة تقول : إنها حيلته الوحيدة لدفع التهمة عنه . وعندما سمع الشاهد الأول ، سمعه جنود الشرطة المجاورون له يهمهم من بين أسنانه :

– آه . عال ! هذا واحد !

وبعد سماع الشهادة الثانية ، قال بصوت أعلى ، وبنبرة تكاد تنم على الرضا :

– عال !

وعند سماع الشاهد الثالث صاح :

– عظيم !

وناداه الرئيس :

– أيها المتهم ! لقد سمعت بنفسك . فما قولك ..؟

فأجابه :

– أقول : عظيم !

فانفجرت همهمة بين الجمهور كادت تشمل المحلفين . فقد كان واضحاً أن الرجل ضائع لا محالة !

فقال الرئيس :

– أيها الحجاب ! أقروا السكون ! سأغلق باب المرافعات .

وفى هذه اللحظة ، حدثت حركة بجوار الرئيس مباشرة . وسمع الناس صوتاً يصيح :

– بريفيه ! شنلدييه ! كوشباى ! انظروا إلى هذه الناحية !

فأحس كل من سمعوا هذا الصوت ببرودة الثلج ، لأنه كان صوتاً بالغ الرهبة . واتجهت العيون كلها نحو الموضع الذى صدر منه هذا الصوت . وإذا رجل قائم بين مجموعة الحاضرين الممتازين الجالسين خلف هيئة المحكمة ، وقد انبرى واقفاً ، ثم دفع الباب القصير الفاصل بين مكان هيئة المحكمة وبين سائر القاعة ، واخترقه فوقف وسط الفراغ الفاصل بين الهيئة والجمهور . وعرفه الرئيس والمحامى العام ومسيو بمتابوا وعشرون شخصاً آخر على الأقل ، وصاحوا فى نفس واحد :

– المسيو مدلين !

* * *

الفصل الحادى عشر
شانماتييه تزداد دهشته

وكان هو المتكلم فعلا . فقد أضاء مصباح الكاتب وجهه . وكان ممسكاً بقبعته فى يده ، وليس فى ثيابه أى اضطراب . وردنجوته مزرر بعناية . وكان شاحباً جداً . ويرتجف رجفة خفيفة . وشعره الذى كان رمادياً لحظة وصوله إلى أراس صار الآن خالص البياض ، فقد ابيض فى خلال الساعة التى قضاها هنا .

وارتفعت كل الرءوس ، وصارت الإثارة تفوق الوصف : وسادت الحاضرين لحظة تردد . فقد كان صوته شديد الحدة ، ولكن الرجل الماثل هنا يبدو شديد الهدوء ، فاستغلق عليهم الفهم للوهلة الأولى . وتساءلوا : من ذا الذى صاح ، ولم يصدقوا أن ذلك الرجل الهادئ الرصين هو الذى أطلق هذه الصيحة الثاقبة .

ولم يطل هذا التردد إلا بضع ثوان . وقبل أن يتسنى للرئيس أو المحامى العام أن يقول كلمة واحدة ، وقبل أن يتسنى للشرطة والحجاب أن تبدر منهم حركة ، تقدم الرجل الذى كان الجميع يدعونه حتى هذه اللحظة المسيو مدلين نحو الشهود الثلاثة : كوشباى ، وبريفيه ، وشنلدييه . وقال لهم :

— ألا تعرفوننى ؟

فظل الثلاثة مأخوذين ، وبإيماءة من رءوسهم عبروا عن عدم

معرفتهم إياه . وأدى له كوشباى التحية العسكرية فى وجل . فالتفت المسيو مادلين صوب المحلفين وصوب هيئة المحكمة وقال بصوت رقيق :

— يا حضرات المحلفين. أطلقوا سراح المتهم . يا سيادة الرئيس مر بإلقاء القبض على . فالرجل الذى تبحثون عنه ليس هذا المتهم ، بل أنا ! أنا جان فلجان !

واحتبست الأنفاس فى جميع الأفواه . وأعقب الإثارة الأولى والدهشة صمت كصمت القبور . وشعر الجميع فى القاعة بتلك الرهبة الدينية التى تستولى على الجموع عندما يحدث أمر عظيم .

ومع هذا اكتسى وجه الرئيس بالتعاطف والأسى : وكان قد تبادل إشارة سريعة مع المحامى العام ، وتبادل عبارات خافتة مع زميليه المستشارين . ثم قال للجمهور بلهجة فهمها الجميع :

— أيوجد ها هنا طبيب ؟

وتكلم المحامى العام ، فقال :

— يا حضرات المحلفين ، إن الحدث الشديد الغرابة وغير المتوقع الذى هز الحاضرين لا يوحى إلينا ، ولا إليكم ، إلا بشعور لا حاجة بنا إلى التعبير عنه . فأنتم تعرفون جميعاً — بحكم شهرته وسمعته المجيدة على الأقل — المسيو مدلين المبجل ، عمدة « م » . فإذا كان بين الحاضرين طبيب ، فنحن نضم صوتنا إلى سيادة الرئيس لمناشدته التفضل بإسعاف المسيو مدلين وتوصيله إلى مقره .

ولم يدع المسيو مدلين المحامى العام يتم كلامه . بل قاطعه بلهجة شديدة الوداعة وإن كانت ذات سلطان . وهاك ما قاله عندئذ بحروفه ، كما سجله بعد الجلسة مباشرة أحد مشاهدى هذا الحدث ، كما كان يرن فى آذان من سمعوه ، منذ أربعين سنة تقريباً :

— أشكرك يا سيادة المحامى العام . ولكنى لست مخبولا ، وسترون ذلك بأنفسكم . فقد كنتم على شفا ارتكاب خطأ جسيم . أطلقوا سراح هذا الرجل ، فأنا إنما أقوم بواجب ، فأنا ذلك الشقى المحكوم عليه . وأنا الوحيد الذى أرى الحقيقة بوضوح من بينكم . وما أقوله لكم هو الحقيقة. وما أفعله ها هنا الآن يراه الله فى علاه ، وهذا يكفى: وفى وسعكم أن تقبضوا على ، ما دمت هنا . وإن كنت قد بذلت قصارى جهدى ، فاختفيت تحت اسم جديد ، وصرت ثرياً ، وعمدة ، وكنت أحرص على البقاء فى عداد الشرفاء . ولكن يبدو أن هذا غير ممكن . وأخيراً هناك أمور لا يسعنى البوح بها ، ولن أسرد عليكم تاريخ حياتى ، وسوف يحين وقت يعرف فيه الجميع . لقد سرقت يا سادة مولانا الأسقف . هذا صحيح ،وسرقت جرفيه الصغير . هذا صحيح . ومن قالوا لكم : إن جان فلجان كان شقياً شريراً جداً كانوا على حق . وقد لا يكون الذنب كله ذنبه . اسمعوا أيها السادة القضاة ، إن رجلا مثلى ليس من حقه أن يعتب على القدر ، ولا أن يدلى بالنصائح للمجتمع . ولكن اعلموا أن الوصمة التى حاولت الخلاص منها ضارة جداً . ولكن الليمان هو الذى يصنع

المجرم . صدقونى . فأنا قبل الليمان كنت فلاحاً فقيراً ، قليل الذكاء جداً . شبه أبله . وغيرنى الليمان . كنت غبياً فجعلنى الليمان شريراً . كنت حطبة فصرت حربة . وجاءت الطيبة بعد ذلك فأنقذتنى . مثلما أضاعتنى القسوة . وأستميحكم العفو ، فليس فى وسعكم أن تفهموا هذا الذى أقوله . وسوف تجدون فى مسكنى ، فى رماد المدفاة ، قطعة الأربعين صلدياً التى سرقتها منذ سبع سنين من جرفيه الصغير ، وليس لدى الآن ما أضيفه . خذونى ! يا إلهى ! إن سيادة المحامى العام يهز رأسه وأنتم تقولون : لقد جن المسيو مدلين ، لأنكم لا تصدقوننى ! وهذا فظيع . إياكم أن تدينوا هذا الرجل على الأقل! إن هؤلاء الثلاثة لم يعرفونى ! وكم أتمنى لو كان جافير هنا ، فقد كان حرياً أن يعرفنى هو !

وما من كلمات يمكن أن تصور مدى الأسى والطيبة والرهبة التى اجتمعت فى نبرة هذه الأقوال .

والتفت صوب الشهود الثلاثة ، وقال :

— أما أنا فأعرفكم ! يا بريفيه ! أتذكر ...

وسكت لحظة متردداً ثم قال :

— أتذكر تلك الحمالة من التريكو التى كنت تلبسها فى الليمان ؟

فانتفض بريفيه فى دهشة ، وحدق فيه من فرعه إلى قدمه فى ذعر ، أما هو فاستطرد :

— يا شنلدييه ! الذى لقب نفسه « جينديبه » ، إنك محترق

على امتـداد كتفك اليمنى حرقاً عميقاً ، لأنك رقدت ذات يوم فوق مدفأة ملآنة بالجمر ، لكى تمحو من جلدك الحروف الثلاثة T. F. P. التى لم تزل مشاهدة مع هذا . أجبنى .. أليس هذا صحيحاً ؟

فقال شنلديه :

— هـذا صحيح .

وخاطب كوشباى قائلا :

— يا كوشباى ! إن بالقرب من ثنية ذراعك اليسرى تاريخاً محفوراً بأحرف زرقاء . وهو تاريخ نزول « الإمبراطور » فى كان : أول مارس سنة ١٨١٥ ؛ ارفع كمك !

فرفع كوشباى كمه ، واتجهت جميع الأنظار إلى ذراعه العارية . وقرب أحد الشرط مصباحاً ، فإذا بهذا التاريخ هناك .

والتفت الشقى نحو الحاضرين والقضاة بابتسـامة كاشرة . هى ابتسامة النصر ، وابتسامة اليأس .

وقال مسيو مدلين :

— ها أنتم ترون أنى جان فلجان !

ولم يبق فى هذه القاعة قضاة ، ولا رجال نيابة ، ولا شرطة ، بل كل من فيها عيون شاخصة وقلوب واجفة . ولم يعد أحد يتذكر الدور الذى كان من الممكن له أن يقوم به ، أو ينبغى عليه القيام به . فالمحامى العام نسى أنه هناك لكى يقوم بالاتهام ، والرئيس نسى أنه هناك لكى يرأس الجلسة ، ومحامى الدفاع نسى أنه هناك ليدافع .

والمذهل حقاً أنه ما من سؤال وجه وما من سلطة تدخلت . فمن شأن المشاهد الرائعة أن تستولى على كل الألباب . وتحول جميع الشهود إلى متفرجين . ولعله ما من أحد وعى ما يمر به أو يخامره ، وما من أحـد قطعاً قال لنفسـه : إنه رأى أمام عينيه نوراً عظيماً يتبلج ، ولكن الكل شعروا فى دخيلة أنفسهم بالانبهار .

وكان جلياً أن الذى أمام أعينهم هو جان فلجان . لم يعد فى هذا ريب . فظهور هذا الرجل كان كافياً بإلقاء الضوء على هذه المغامرة التى كانت غامضة تماماً منذ لحظة . ومن غير أن يكون ثمة داع لأى تفسير بعد ذلك ، فهم هذا الجمع الحاشد بأسره — كأنما مستهم كهرباء — بنظرة واحدة هذه القصـة البسيطـة العظيمة لرجل يسلم نفسـه لينقذ رجلا آخر من الإدانة والعقاب بدلا منه . وضاعت التفصيلات ، والترددات ، والمقاومات الصغيرة الممكنة فى غمار هذا الحدث الضخم المضىء .

انطباع لم يلبث أن مر بسرعة ، ولكنه كان فى حينه لا يقاوم .

واستأنف جان فلجان الكلام ، قال :

— لا أريد أن أعطل الجلسة أكثر من هذا . فسوف أنصرف ، ما دام أحد لم يقبض على . فأمامى عدة مهام أقوم بها . وسيادة المحامى العام يعرف من أنا . ويعرف أين أنا ذاهب . وفى وسعه أن يقبض على عندما يشاء .

واتجه إلى باب الخروج . فلم يرتفع صوت ، ولم تمتد ذراع لمنعه . وتباعد الجميع عنه . فقد تمثل فيه عنصر إلهى – لا أدرى ما هو – فى تلك اللحظة ، جعل الجموع تتراجع عن هـذا الرجـل . وشق الزحام بخطى بطيئة . ولا يدرى أحد من الذى فتح الباب ، ولكن مما لا شك فيه أن الباب كان مفتوحاً عندما وصل إليه . وعنـدئذ استدار وقال :

– سيادة المحامى العام . سأظل رهن أمرك .

ثم خاطب الجمهور قائلا :

– وأنتم أيها الحاضرون جميعاً . إنكم تروننى جديراً بالرثاء . أليس كذلك ؟ رباه ! بل أكاد أرانى جديراً أن أغبط ! ومع هذا كنت أتمنى لو لم يحدث شىء من هذا !

وخرج ، وأغلق الباب من تلقاء نفسه كما انفتح من قبل ، لأن من يصنعون الأعمال الخارقة يجدون من غمار الناس من يخدمهم .

وبعد أقل من ساعة صدر قرار المحلفين بتبرئة المدعو شانماتيه من كل تهمة ، وأطلق سراحه على الفور ، فخرج مذهولا ، وهو يظن جميع الناس مخبولين ، لأنه لم يفهم شيئاً مما تراءى له .

* * *

الكتاب الثامن

رد الفعـــل

الفصل الأول

فى اى مرآة رأى المسيو مدلين شعره

بدأ النهار ببزغ . وكانت فانتين قد قضت ليلة محمومة أرقة ، إلا أنها حافلة بالصور السعيدة . وعند الصباح بدأت تخلد للكرى . واغتنمت الأخت سمبليس التى كانت ساهرة عليها هذا النعاس لكى تذهب لتحضير شراب جديد من الكنكينا ـ كأمر الطبيب . وكانت الأخت الموقرة فى المعمل منذ بضع لحظات ، مكبة على عقاقيرها وقنانها ، تحدق فيها عن كثب بسبب الضباب الذى يكتنف الأشياء . وفجأة أدارت رأسها وندت عنها صرخة خافتة . فقد كان المسيو مدلين قبالتها ، وكان قد دخل فى صمت .

وصاحت :

ـ أهو أنت يا سيادة العمدة ؟

فأجابها بصوت خفيض :

ـ كيف حال تلك المرأة المسكينة ؟

ـ لا بأس بحالها فى هذه اللحظة . ولكننا كنا مشغولى البال عليك !

وشرحت له ما حدث ، وأن فانتين كانت بشر حال فى الليلة

الماضية . وأنها الآن أحسن ، لأنها اعتقدت أن سيادة العمدة كان قد ذهب ليحضر لها طفلتها من منفرمى . ولم تجسر الأخت على سؤال سيادة العمدة ، إلا أنها تبينت من سحنته أنه لم يأت من هناك . وقال :

— كل هذا حسن. وكنت أنت على صواب بعدم تصحيح ظنها.

فقالت الأخت :

— نعم . ولكنها الآن ستراك يا سيادة العمدة ، ولا ترى معك طفلتها ، فماذا ستقول لها ؟

فظل شارداً لحظة ، ثم قال :

— لسوف يلهمنا الله .

فهمهمت الأخت بصوت خفيض :

— لن يتسنى لنا مع هذا أن نكذب عليها .

وكان وضح النهار قد ملأ الحجرة : وسطع على محيا المسيو مدلين . وشاءت الصدفة أن ترفع الأخت عينيها ، فصاحت :

— يا إلهى يا سيدى ! ماذا حدث لك إذن ؟ إن شعرك كله ناصع البياض !

فقال :

— البياض ؟

ولم يكن لدى الأخت سمبليس مرآة ، ولكنها فتشت بين الأدوات الجراحية وأخرجت مرآة صغيرة يستخدمها الطبيب للتحقق

من وفاة المريض وانقطاع تنفسه . وتناول المسيو مدلين المرآة ، وحدق فى شعره وقال :

— هكذا !

قال هذه الكلمة بعدم مبالاة وكأنه يفكر فى شىء آخر .

وأحست الأخت بالبرودة تشملها لسبب مجهول استشفته فى هذا كله . وقال هو :

— أيمكننى أن أراها ؟

فقالت الأخت ، وهى لا تكاد تتجاسر على السؤال :

— ألن يحضر لها سيادة العمدة طفلتها ؟

— بلا شك . ولكن لابد لهذا من انقضاء يومين أو ثلاثة .

فقالت الأخت فى تهيب وعلى استحياء :

— إن لم تر سيادة العمدة حتى ذلك الحين لم تعرف أن سيادة العمدة قد عاد ، وسهل علينا أن نجعلها تصبر ، وعندما تحضر الطفلة اعتقدت أن سيادة العمدة عاد مع الطفلة . ولم نضطر للكذب .

وبدا على المسيو مدلين أنه يفكر بضع لحظات ، ثم قال بوقاره الهادئ :

— كلا يا أخت . لابد أن أراها . فلعلى على عجل من أمرى .

ولم يبد أن الراهبة لاحظت قوله « فلعلى » بمعناها الغامض الشاذ بين كلمات سيادة العمدة . فأجابته خافضة عينيها وصوتها باحترام :



ثم دخل حجرة فانتين ، واقترب من السرير وأزاح الستائر قليلًا . وكانت نائمة ..

– إنها تستريح الآن ، ولكن فى وسع سيادة العمدة أن يدخل .

وأدلى ببضع ملاحظات عن باب سيىء المفصلات يمكن أن يوقظ المريضة ، ثم دخل حجرة فانتين ، واقترب من السرير وأزاح الستائر قليلا . وكانت نائمة . ونفسها يخرج من صدرها بصوت فظيع معهود فى هؤلاء المرضى ، يثير الأمهات المسكينات عندما يسهرون ليلا بالقرب من أطفالهن المرضى النائمين . إلا أن هذا التنفس المؤلم لم يكد يعكر الطمأنينة المرتسمة على محياها وهى نائمة . وقد تحول شحوبها إلى بياض ، وأما وجنتاها فكانتا قرمزيتين . وأهدابها الطويلة الشقراء – وهى سمة الجمال التى بقيت لها من أيام عذريتها وشبابها – فكانت ترتجف وإن بقيت مطبقة مرتخية . وكل كيانها كان ينتفض كانتفاضة جناحين يهمان بالانطلاق والتحليق بها . فمن كان يراها هكذا ما كان ليعتقد أبداً أنها مريضة تكاد حياتها أن يكون ميئوساً منها .. فهى أشبه بمن توشك أن تطير منها بمن توشك أن تموت .

إن الغصن إذا ما اقتربت منه يد لكى تنتزع الزهرة منه يرتجف ، ويتأود ما بين التمنع والاستجابة . والجسم البشرى تنتابه مثل هذه الرجفة عندما تحين اللحظة التى تمتد فيها أصابع الموت لقطف الروح .

وظل المسيو مدلين بعض الوقت ساكناً بقرب هذا الفراش ، ينقل بصره بين المريضة والصليب ، مثلما فعل قبل شهرين ، عندما

جاء لأول مرة ليراها فى هذا المأوى . وها هما الآن فى نفس الوضع : فهى نائمة وهو يصلى ، ولكن بفرق واحد ، أنها بعد هذين الشهرين قد صار شعرها رمادياً ، وصار شعره أبيض .

ولم تكن الأخت الراهبة قد دخلت معه ، فظل واقفاً قرب هذا الفراش ، وإصبعه على فمه ، كأنما فى الحجرة أحد يريد أن يلزمه الصمت .

وفتحت عينيها ، فرأته ، وقالت بوداعة وهى تبتسم :

– وكوزيت ؟

* * *

الفصل الثانى

فانتين سعيدة

لم تبدر منها حركة دهشة ، ولا حركة سرور ، بل كانت هى السرور نفسه ! وكان سؤالها البسيط هذا :

– وكوزيت ؟

موجهاً إليه بإيمان عميق ، وبثقة بالغة ، خالية تمام الخلو من القلق أو الشك ، بحيث لم يجد ما يقوله . فاستطردت :

– كنت أعلم أنك موجود هنا . كنت نائمة ولكنى كنت أراك . وأنا منذ مدة طويلة أراك ، وقد تبعتك بعينى طول الليل . كنت أراك فى هالة من المجد ومن حولك كل أنواع الشخوص السماوية .

فرفع عينيه إلى الصليب ، وأردفت هى :

– ولكن قل لى : أين كوزيت ؟ لماذا لم تضعها على فراشى لكى أجدها عندما أستيقظ ؟

فأجاب بصورة آلية بشىء لم يستطع أبداً أن يتذكره بعدذلك :

ولحسن الحظ ، كان الطبيب قد أبلغ فحضر ، وخف لنجدة المسيو مدلين . قال الطبيب :

– اهدئى يا ابنتى . طفلتك هناك .

فتوهجت عينا فانتين وشع منهما الضوء على محياها كله ، وضمت يديها بضراعة بالغة الشدة وبالغة الوداعة فى آن واحد ، وصاحت :

— أوه ! احملها إلى !

يا لأوهام الأم المؤثرة ! فكوزيت كانت دائماً فى نظرها الطفلة الصغيرة التى يحملونها .. وقال الطبيب :

— ليس الآن . ليس فى هذه اللحظة . فما زلت تعانين من آثار الحمى . ورؤية طفلتك من شأنها أن تهزك وتسبب لك الأذى : فلابد أولا من تمام شفائك .

فقاطعته باندفاع قائلة :

— ولكنى شفيت تماماً ! أقول لك : إنى شفيت ! أتراه حماراً هذا الطبيب . آه ! أريد أن أرى طفلتى ، حالا !

فقال الطبيب :

— ها أنت نفسك ترين كيف تحتدين . وما لبثت هكذا فأنا أعارض فى أن تأتى إليك طفلتك . فليس يكفى أن تريها ، بل لابد أن تعيشى لها . وعندما تصبحين معقولة ، ومتعقلة ، سأحضرها لك بنفسى .

فأحنت الأم المسكينة رأسها ، وقالت :

— يا سيادة الطبيب ، أسألك الصفح . أسألك العفو من كل قلبى . فيما مضى لم أكن لأتكلم على نحو ما تكلمت الآن : ولكن المصائب التى مرت بى جعلتنى أحياناً لا أدرى ما أقول . وأنا فاهمة أنك تخشى الانفعال . وسأنتظر كل الوقت الذى تريدونه . ولكنى أقسم لك أن رؤية ابنتى ما كانت لتسبب لى أذى . فأنا أراها ،

ولا تفارقها عيناى منذ مساء أمس . أتدرى ؟ إن حملوها إلى الآن سأشرع فى التحدث إليها بكل لطف وخفوت . وهذا كل شىء . أليس طبيعياً جداً أن أتوق إلى رؤية طفلتى التى أحضروها لى خصيصاً من منفرمى ؟ أنا لست غاضبة . وأعرف أنى سأكون سعيدة جداً ؛ وقد ظللت طول الليل أرى أشياء بيضاء وأشخاصاً يبتسمون لى . وليتفضل سيادة الطبيب بإحضار كوزيت إلى حينما يشاء . لم أعد أعانى من الحمى ، لأنى شفيت . وأحس أنى لم أعد أعانى من شىء . ولكنى سأتصنع المرض ولا أتحرك كى أرضى السيدتين القائمتين على تمريضى . وعندما تريان أنى هادئة تمام الهدوء ، ستقولان : ينبغى إحضار طفلتها إليها .

وكان المسيو مدلين قد جلس على مقعد إلى جوار الفراش . فالتفتت إليه ، وكان واضحاً أنها تبذل جهداً كى تبدو هادئة « وعاقلة » — على حد قولها فى ضعف المرض الذى يشبه الطفولة ، لكى لا يمانعوا فى إحضار كوزيت إليها عندما يجدونها مخالدة للهدوء والدعة . ولكن برغم محاولاتها لتمالك نفسها لم تستطع أن تمنع نفسها من توجيه ألف سؤال إلى المسيو مدلين :

— أكانت رحلتك طيبة يا سيادة العمدة ؟ آه ! ما أطيبك لأنك ذهبت كى تأتينى بها ! قل لى فقط كيف هى ؟ كيف حالها ؟ هل تحملت مشاق الرحلة ؟ وأسفاه ! إنها لن تعرفنى ! لطول الوقت لابد أنها نسيتنى ، هذه العزيزة ! الأطفال ليست لهم ذاكرة . إنهم

كالعصافير . يرون شيئاً اليوم ، ويرون شيئاً آخر غداً ، ولا يفكرون بعد ذلك فى شىء . أترى كان لديها على الأقل ملابس داخلية بيضاء ؟ وهل كان آل تنرديبه يحافظون على نظافتها ويعنون بها كما يجب ؟ كيف تراهم كانوا يغذونها ؟ أوه ! كم عانيت ، لو تعلم ! لأنى كنت ألقى على نفسى كل هذه الأسئلة فى وقت محنتى ! أما الآن فقد انتهى كل شىء ! وأنا سعيدة ! أوه ! كم أريد أن أراها ! يا سيادة العمدة : أوجدتها جميلة ؟ أليست ابنتى حسناء ؟ لابد أنك شعرت بالبرد فى هذه العربة ؟ ألا يمكن أن يحضروها إلى ولو لحظة قصيرة ؟ ثم يأخذونها بعد ذلك على عجل ! قل لهم ! فأنت السيد ، إن شئت فعلوا !

فتناول يدها وقال :

— كوزيت جميلة . كوزيت بخير صحة ، وسترينها قريباً ، ولكن اهدئى . فأنت تتكلمين بحرارة شديدة ، وتخرجين ذراعيك من الفراش ، وهذا يجعلك تسعلين .

وفعلا أخذت نوبات السعال تقطع على فانتين كلامها بين كل كلمة وأخرى تقريباً .

ولم تبتس فانتين ، فقد خشيت أن تكون قد نكثت بشكواها الحارة هذه الثقة التى كانت تريد أن تلهمها ، وشرعت بعد ذلك تتكلم فى أمور لا أهمية لها . قالت :

— مونفرمى جميلة . أليس كذلك ؟ وفى الصيف يذهب إليها

الناس فى رحلات للنزهة والمتعة . وهل أحوال آل تنرديبه المعاشية جيدة ؟ إن من يمرون بالمكان ليسوا كثيرين . ومطعمهم صغير وحقير ...

وكان المسيو مدلين ممسكاً على الدوام بيدها ، ناظراً إليها فى قلق . وكان واضحاً أنه جاء إليها لكى يقول لها أموراً يقف فكره أمامها الآن حائراً . وكانت زيارة الطبيب قد انتهت فانسحب ، وبقيت الأخت سمبليس وحدها معهما .

ومع هذا ، قطعت فانتين هذا الصمت صائحة :

— إنى أسمعها ! يا إلهى ! إنى أسمعها !

ومدت ذراعها كى يسود الصمت حولها ، وكتمت أنفاسها ، وراحت تصغى فى طرب ونشوة . وكانت هناك طفلة تلعب فى الفناء ، هى طفلة البوابة أو إحدى العاملات . وهى مصادفة تحدث دائماً فى الظروف العصيبة . وكانت البنت الصغيرة تروح وتغدو وتجرى وتضحك وتغنى بصوت مرتفع . وما أكثر تنوع لهو الأطفال ! وكانت هذه الطفلة الصغيرة هى التى تسمعها فانتين تغنى . فقالت :

— أوه ! إنها كوزيت ! فأنا أعرف صوتها !

وابتعدت الطفلة كما اقتربت . وخمد صوتها . وأصغت فانتين بعض الوقت ، ثم أظلم وجهها بعد إشراق . وسمعها المسيو مدلين تقول بصوت خافت :

— ما ألأم هذا الطبيب الذى لم يدعنى أرى ابنتى . إن له سحنة شريرة !

ومع هذا عادت إليها أفكارها الضاحكة . وظلت تكلم نفسها ، ورأسها على الوسادة ، قائلة :

— كم سنكون سعيدتين ! ستكون لنا حديقة صغيرة قبل كل شىء . فالمسيو مدلين وعدنى بهذا . وستلعب ابنتى فى الحديقة الصغيرة . ولا بد أنها تعرف الآن حروف الهجاء . وسأجعلها تتهجى . وستجرى فى العشب وراء الفراشات . وسوف أنظر إليها . ثم ستتناول أسرارها المقدسة للمرة الأولى . آه ! متى يا ترى سيتم ذلك ؟

وشرعت تعد على أصابعها :

— واحد . اثنان . ثلاثة . أربعة ... آه . عمرها الآن سبعة أعوام . بعد خمسة أعوام إذن . وسيكون لها خمار أبيض ، وجورب مطرز ، فتغدو شابة ! يا أختى المقدسة الصالحة . أنت لا تدرين كم أنا غبية . ها أنا أفكر فى الأسرار المقدسة الأولى لابنتى !

ثم أخذت تضحك .

وكان قد ترك يد فانتين . وراح يصغى لهذه الأقوال مثلما يصغى لهبوب الريح ، مفضياً إلى الأرض ، وفكره غارق فى أغوار لا تسبر . وفجأة كفت عن الكلام ، فرفع رأسه آلياً . وقد غدت فانتين مروعة . لم تعد تتكلم . ولم تعد تتنفس ، ونهضت فى موضعها نصف نهوض ، وخرجت كتفها الهزيلة من قميصها . ووجها الذى كان

مشرقاً منذ لحظة اكفهر ، وشخصت بعينيها إلى شىء ما فى الطرف الأقصى للحجرة فى نظرة ارتياع . فصاح :

— يا إلهى ! ماذا بك يا فانتين ؟

فلم تجب . ولم تفارق عيناها ذلك الشىء الذى بدا عليها أنها تراه ، ولمست ذراع المسيو مدلين بإحدى يديها ، وبالأخرى أشارت إليه أن ينظر خلفه .

فالتفت . ورأى جافير .

* * *

الفصل الثالث
جافير راضيا

وهاك ما حدث :

كانت الساعة قد دقت الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل عندما غادر المسيو مدلين محكمة الجنايات فى أراس . وعاد إلى نزله ليدرك فى آخر لحظة مركبة البريد التى كان قد حجز مكانه فيها بجوار السائق. وقبيل الساعة السادسة صباحاً وصل إلى « م » ، وكان أول ما اهتم به هو أن يلقى فى البريد خطابه إلى المسيو لافيت ، ثم ذهب إلى المستوصف ليرى فانتين .

ومع هذا ، ماكاد يغادر قاعة محكمة الجنايات ، حتى أفاق المحامى العام من ذهوله ، وقام ليندد بذلك العمل الجنونى الذى أقبل عليه سيادة عمدة « م » ، المبجل ، وأعلن المحامى العام أن موقفه لم يتغير بهذا الحادث الغريب الذى ستتضح خوافيه فيما بعد ، وطالب فى الختام بمعاقبة شانماتيبه ، لأنه بلا شك جان فلجان الحقيقى .

وكان إصرار المحامى العام من الواضح أنه مناقض لشعور الجميع : شعور الجمهور ، والمحلفين ، وهيئة المحكمة . ولم يجد محامى الدفاع كبير عناء فى تفنيد هذه المرافعة وتجلية الوجه الحقيقى للقضية التى انقلبت رأساً على عقب بسبب ما كشف عنه المسيو مدلين ، الذى هو جان فلجان الحقيقى ، وهكذا صار المتهم بريئاً تماماً فى نظر

المحلفين .. وكانت فرصة للمحامى للتنديد بحجج ليست جديدة للأسف عن أخطاء القضاء إلخ ... وانضم الرئيس فى تلخيصه للدفاع ، وبعد بضع دقائق برأ المحلفون ساحة شانماتيبه .

ولكن كان لابد من جان فلجان للمحامى العام . وما دام شانماتيبه قد أفلت من يده ، لذا قرر القبض على مدلين .

وفوراً على أثر إطلاق سراح شانماتيبه ، اختلى المحامى العام بالرئيس ، وتداولا فى « ضرورة التحفظ على شخص سيادة عمدة م » وهذه العبارة من صياغة المحامى العام ، وقد كتبها فى ختام تقريره . إلى النائب العام . وبعد التغلب على انفعاله الأول ، لم يعترض الرئيس على هذا الإجراء . فلا بد للعدالة أن تأخذ مجراها . ثم إن الرئيس وإن كان رجلا طيباً وعلى قدر كاف من الذكاء ، إلا أنه فى الوقت نفسه ملكياً متحمساً ، وقد صدمه أن عمدة « م » ، حين تكلم عن النزول على شاطئ كان ، قال « الإمبراطور » ولم يقل « بونابرت » .

وهكذا إذن صدر أمر القبض . وأرسله المحامى العام إلى « م » مع رسول خاص ، وكلف بموجبه مفتش الشرطة جافير بتنفيذه .

ونحن نعلم أن جافير كان قد عاد إلى « م » بعد الإدلاء بشهادته فوراً . ونهض جافير فى لحظة تسليم الرسول الخاص أمر القبض إليه ومعه أمر الضبط والإحضار .

وكان الرسول الخاص نفسه من رجال الشرطة المعروفين ، وفى كلمتين أبلغ جافير بما حدث فى أراس . وكان أمر الضبط والإحضار

الموقع من المحامى العام يجرى على هذا السياق :

— يتولى المفتش جافير القبض على السيد مدلين ، عمدة « م » الذى تبين فى جلسة هذا اليوم أنه نزيل الليمان السابق جان فلجان .

ومن قابل جافير لحظة دخوله حجرة انتظار المستوصف ما كان ليخمن ما جرى ، وكان خليقاً أن يجد سحنته عادية تماماً . فقد كان بارداً ، هادئاً ، وقوراً ، وشعره الرمادى مسدل على عارضيه ، وهو يصعد السلم ببطئه المعتاد . ومن كان يعرفه أعمق المعرفة ، لو تأمله عن كثب لانتابته رجفة . فأبزيم ياقته الجلدية بدلا من أن يكون على عنقه ، كان عند أذنه اليسرى . وهذا ينم على اضطراب لا نظير له .

وكان جافير شديد التدقيق فى كل شىء ، لا يسمح بخلل بسيط فى واجبه أو كسوته الرسمية ، بالغ الصرامة مع الأوغاد ، ومع أزرار كسائه ! فإهماله فى وضع أبزيم ياقته يدل على انفعال شديد ، أشبه بالزلزال الباطنى .

ولكنه حضر ببساطة ، بعد أن استحضر من المخفر القريب رقيب وأربعة جنود ، وترك الجنود فى الفناء ، وطلب من البوابة أن تدله على غرفة فانتين من غير أن يثير ريبتها ، وكانت معتادة على رؤية العسكريين يأتون لمقابلة المسيو مدلين .

ولما وصل إلى حجرة فانتين ، أدار جافير المفتاح ، ودفع الباب برفق كأنه ممرضة أو متلصص ، ثم دخل .

وهو فى الواقع لم يدخل ، بل وقف فى الباب المنفرج ، وقبعته

فوق رأسه ، ويده اليسرى فى ردنجوته المقفل حتى الذقن . وفى ثنية الكوع شوهد مقبض عصاه الغليظة ، وهو من الرصاص ، أما العصا فكانت مختفية خلفه .

وظل هكذا ما يقرب من دقيقة ، من غير أن يلحظ أحد وجوده . وفجأة رفعت فانتين عينيها ، فرأته ، وجعلت المسيو مدلين يلتفت نحـوه .

وما إن التقى نظر مدلين بنظر جافير ، حتى غدا جافير رهيباً مفزعاً من غير أن يتحرك ، ومن غير أن يقترب . وما من شعور بشرى يمكن أن يغدو مروعاً مثل شعوره هذا بالفرح ! فغدا وجهه وجه شيطان عثر على فريسته اللعينة . واستطاع يقينه من وضع يده أخيراً على جان فلجان أن يظهر على سحنته ما كان كامناً فى سريرته . فإذا بالقاع الجياش يطفو على السطح . وانمحى خزيه لفقدان أثر جان فلجان بحيث خاله شانماتييه وحل محله الزهـو لأنه كان أسبق الجميع إلى صدق الحدس ، مما يدل على صواب غريزته . وتجلى رضا جافير عن نفسه فى مسلكه المتعالى . وظهرت علائم الانتصار على جبينه الضيق ...

كان جافير فى هذه اللحظة محلقاً فى عنان السماء . ومن غير أن يشعر ، بل بحدس غامض بأهميته ونجاحه ، كان جافير يجسد العدالة والنور والحقيقة وهى تؤدى مهمتها فى سحق الشر . فكانت تحيط به هالة من السلطة المتمثلة فى حكم قضائى ، وفى الضمير القانونى ،

والثأر العام . فهو حامى النظام ، وصاعقة القانون ! وهو الآخذ بثأر المجتمع . فانتصب بكل أمجاده هناك ، مع إثارة من التحدى والرغبة فى التزل . وكأنما يسحق تحت كعبه الجريمة والرذيلة والتمرد والجحيم وهو مفتر عن ابتسامة كاشرة ، فبدا فى وقفته هذه لا يخلو من عظمة . وقد خلا تماماً من علائم الحساسة . فهو نموذج للنزاهة والإخلاص والاقتناع بالواجب . وهى صفات إن اقترنت بالحقد ، إلا أنهـا تظل عظيمة ، رغم دمامتها الناجمة عن الضغينة والتعصب وضـيق الأفق . وهكذا تجسد فى وقفته ما قد ينطوى عليه الخير من الشر عندما تتقمصه النفوس الصغيرة .

* * *

الفصل الرابع

السلطة تسترد واجباتها

ولم تكن فانتين قد رأت جافير منذ اليوم الذى انتزعها فيه سيادة العمدة من براثن هذا الرجل . ولم يستوعب ذهنها المريض شيئاً سوى أنه إنما جاء ليأخذها . ولم تستطع أن تتحمل هذه السحنة الفظيعة ، وأحست أنها توشك أن تموت ، فغطت وجهها بيديها وصاحت فى رعب :

— يا مسيو مدلين . أنقذنى !

وكان جان فلجان قد نهض — فلن ندعوه منذ الآن إلا بهـذا الاسم — وقال لفانتين بألطف صوت وأرقه :

— اهدئى واطمئنى . فهو لم يأت من أجلك .

ثم خاطب جافير قائلا :

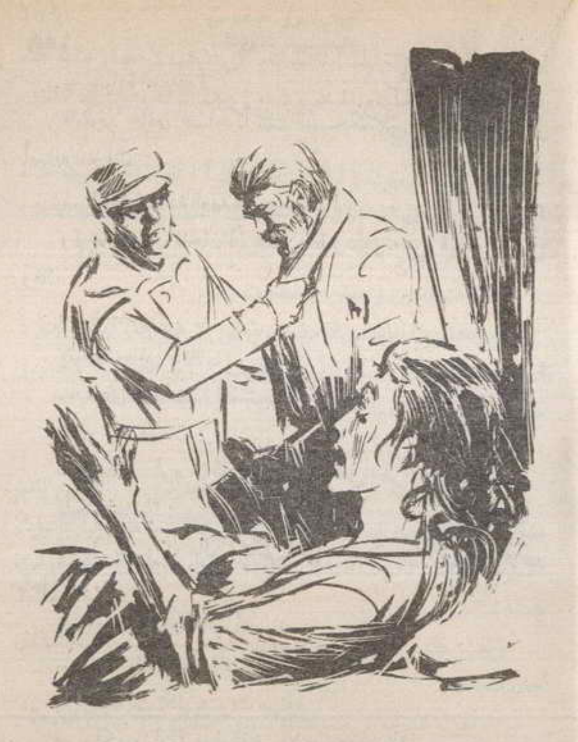
— أنا أعرف ماذا تريد .

فأجابه جافير :

— هيا إذن . أسرع !

وكانت لهجته نفسها جياشة تلاطمت فيها المقاطع ، فكأنما ما قاله ليس كلاماً بشرياً ، بل زئير وحش ضار !

ولم يسلك المنهج المعتاد فى هذه الأحوال ، فلم يبرز أمر ضـبط وإحضار . فجان فلجان فى نظره منازل خارق للعادة ، كانت يده



رأت الشرطى جافير يأخذ بتلابيب سيادة العمدة ، ورأت سيادة العمدة يحنى رأسه . وخيل إليها أن العالم ينهار

عليه منذ خمس سنين ، من غير أن يقدر على قهره . فهذا القبض الآن ليس بداية ، بل هو ختام ، ولذلك اكتفى بقوله :

— هيا إذن . أسرع !

ولم يخط خطوة واحدة وهو يتكلم ، وألقى على جان فلجان نظرته التى تشبه شد الوثاق ، والتى اعتاد أن يجذب بها إليه البؤساء بكل عنف .

وكانت هذه النظرة هى التى أحستها فانتين تنفذ حتى النخاع داخل عظامها ، قبل ذلك بشهرين . وما صاح جافير هذه الصيحة حتى فتحت فانتين عينيها ، ولكن سيادة العمدة موجود هنا فما الذى يمكن أن تخشاه .

وتقدم جافير إلى وسط الحجرة ، وصاح :

— آه . هيا بلا تلكؤ !

فنظرت المسكينة حولها ، ولم يكن هناك أحد اللهم إلا الراهبة وسيادة العمدة ، فإلى من عساه يتوجه بهذه اللهجة المهينة .. إليها هى طبعاً لا إلى أحد سواها . وارتجفت .

وعندئذ رأت شيئاً لم يسمع به أحد من قبل ، ولم يكن ليتراءى لها فى أغرب رؤى هذيان الحمى .

رأت الشرطى جافير يأخذ بتلابيب سيادة العمدة ، ورأت سيادة العمدة يحنى رأسه . وخيل إليها أن العالم ينهار .

وكان جافير قد أخذ بخناق جان فلجان فعلا . فصاحت فانتين :

– سيادة العمدة !

فانفجر جافير ضاحكاً تلك الضحكة التى تكشف عن كل أسنانه ، وقال :

– لم يعد لسيادة العمدة وجود هنا !

ولم يحاول جان فلجان أن يخلص ياقة ردنجوته من قبضة جافير ، وقال :

– يا جافير ...

فقاطعه جافير قائلا :

– نادنى « يا سيادة المفتش » .

فقال جان فلجان :

– سيدى . أود أن أقول لك كلمة على انفراد .

فأجابه جافير :

– بل بصوت عال ! تكلم بأعلى صوت ، الناس يكلموننى بأعلى صوت .

فقال جان فلجان خافضاً صوته :

– إنه رجاء أوجهه إليك .

– أقول لك تكلم بصوت مرتفع .

– ولكن ما أريد قوله ينبغى ألا يسمعه سواك .

– وما شأنى أنا ؟ لست مصغياً .

فالتفت نحوه جان فلجان وقال له بسرعة وبصوت خفيض جداً :

– أمهلنى ثلاثة أيام ! ثلاثة أيام كى أذهب لإحضار طفلة هذه المرأة المسكينة ! سأدفع ما يجب دفعه ! ولك أن تصحبنى إن شئت .

فصاح جافير :

– أتريد أن تهزل ؟ لم أكن أظنك غبياً ! تطلب منى مهلة ثلاثة أيام لتهرب ! وتقول : إنك تريد الذهاب لإحضار طفلة هذه الفتاة ؟ آه ! آه ! هذا عظيم !

فاعترت فانتين رجفة ، وصاحت :

– طفلتى ! تذهب لإحضار طفلتى ؟ هى إذن ليست هنا ! قولى لى يا أختى الراهبة : أين كوزيت ؟ أريد طفلتى ! يا مسيو مدلين ! يا سيادة العمدة !

فضرب جافير الأرض بقدمه وصاح :

– ها هى هذه الأخرى تتكلم الآن ! اخرسى ! يا له من إقليم منكود ذلك الذى يتولى فيه خريجو الليمان السلطة ، وتعالج فيه الفتيات العموميات مثل الكونتسات ! ولكن هذا كله سيتغير ، حان الوقت لهذا !

وثبت نظره فى فانتين وأردف ، وهو لم يزل آخذاً بخناق جان فلجان :

– أقول لك إنه لم يعد هناك مسيو مدلين ولا سيادة العمدة . بل هنا لص . قاطع طريق ، خريج ليمان اسمه جان فلجان ! وهو هذا الذى أمسك به ! هذا هو الموجود هنا !

فانتصبت فانتين منتفضة ، معتمدة على ذراعيها ويديها ، وحدقت في جان فلجان ، وحدقت فى جافير ، وحدقت فى الراهبة ، وفتحت فاها كمن تهم بالكلام ، فخرجت شهقة من حلقها ، واصطكت أسنانها ، ومدت ذراعيها فى رعب ، وفتحت يديها بحركة تشنجية ، وهى تبحث فيما حولها كمن توشك على الغرق ، ثم ارتمت فجأة على وسادتها .

وارتطمت برأس السرير فسقط رأسها على صدرها ، فاغرة الفم ، مفتوحين العينين ، وقد خبا منهما النور .

لقد ماتت !

فوضع جان فلجان يده على يد جافير القابضة عليه وفتحها كما لو كانت يد طفل ، ثم قال لجافير :

— لقد قتلت هذه المرأة !

فصاح جافير مهتاج الغضب :

— لنفرغ مما نحن فيه . فأنا لست هنا لأسمع مواعظ . ولنوفر هذا كله . الحراس أسفل المبنى ، لنسر على الفور ، وإلا وضعت فى يديك القيد الحديدى !...

وكان فى ركن من الحجرة سرير عتيق من الحديد فى حالة سيئة تستخدمه الراهبات عند السهر على المريضة . فاتجه جان فلجان إلى هذا السرير ، وفك فى لمح البصر رأسه الحديدى — وهذا أمر هين على من كانت له عضلات كعضلاته — ونظر إلى جافير ، فتراجع

جافير نحو الباب . ومشى جان فلجان ببطء وعارضة السرير الحديدية فى يده نحو سرير فانتين . ولما وصل إليه التفت إلى جافير وقال له بصوت لا يكاد يسمع :

— لا أنصحك بأن تزعجنى فى هذه اللحظة .

ومن المؤكد أن جافير ارتعدت فرائصه .

وخطر له أن يذهب لدعوة الحراس لنجدته ، ولكن جان فلجان يمكنه أن يستغل هذه الدقيقة ليلوذ بالفرار ، فبقى حيث هو ، وأمسك بعصاه من طرفها الدقيق ، واتكأ على عارضة الباب ، ولم يحول بصره عن جان فلجان .

ووضع جان فلجان كوعه على تفاحة رأس السرير ، ووضع جبهته فوق يده ، وراح يتأمل فانتين الهامدة . ولبث هكذا ، مستغرقاً ، صامتاً ، وكان واضحاً أنه لا يفكر فى شىء من أمور هذه الحياة الدنيا. ولم تبق على محياه ومسلكه إلا علائم الرحمة التى لا توصف وبعد بضع لحظات من هذا الشرود ، انحنى فوق فانتين كلمها بصوت خفيض ...

ماذا قال لها ؟ وماذا كان يسع هذا الرجل وهو فى محنة أن يقول لهذه المرأة الميتة ؟ وماذا كانت أقواله تلك ؟ ما من أحد على وجه الأرض سمعها . فهل سمعتها الميتة ؟ هناك أوهام مؤثرة لعلها حقائق علوية . ولكن ما لا شك فيه أن الأخت سمبليس — وهى الشاهد الوحيد على ما جرى — كثيراً ما روت أنها رأت ابتسامة

تلوح على شفتى فانتين حين همس جان فلجان فى أذنها بما همس ، ورأتها تلوح فى عينيها أيضاً !

وتناول جان فلجان فى يديه رأس فانتين ، وسواه على الوسادة ، وكأنه أم رحيمة بطفلتها ، ثم ربط لها حبل قميصها ، وسوى شعرها تحت قلنسوتها . وبعد أن فرغ من هذا أغمض لها عينيها .

وبدا وجه فانتين فى هذه اللحظة وقد غمره ضوء غريب .

فالموت دخول فى عالم الضوء الأعظم .

وكانت يد فانتين مدلاة خارج فراشها ، فركع جان فلجان أمام هذه اليد ، ورفعها برفق وقبلها .

ثم نهض قائماً والتفت نحو جافير ، وقال :

— أنا الآن رهن إشارتك !

* * *

الفصل الخامس

قبر لائق

أودع جافير جان فلجان سجن المدينة ..

وأحدث القبض على مسيو مدلين إثارة هائلة فى مدينة « م » ، كانت خارقة للعادة كأنها الزلزال . ومما نأسف له أن كلمة « خريج الليمان » جعلت كل الناس تقريباً ينفضون من حوله . وفى أقل من ساعتين كان كل الخير الذى أسداه قد نسى ، ولم يعد أكثر من « خريج ليمان » . وإن لم تعرف بعد تفصيلات ما حدث فى أراس . وظلت طول النهار أحاديث كهذه تتردد فى كل أنحاء المدينة :

— ألا تعرفون ؟ لقد كان نزيل ليمان أطلق سراحه !

— من هذا ؟

— العمدة .

— غير معقول ! المسيو مدلين ؟

— نعم .

— حقاً ؟

— لم يكن اسمه مدلين ، بل له اسم فظيع : بيجان . بوجان ... شىء كهذا .

— آه يا إلهى !

— وقد ألقى القبض عليه .

— قبض عليه ؟

— وأودع السجن . سجن المدينة ، وربما ينقلونه .

— لينقلوه ! سينقلونه ! وأين سينقلونه ؟

— سيقدم لمحكمة الجنايات لجريمة سرقة مع قطع الطريق اقترفها فيما مضى .

— آه . لقد كنت أرتاب به . فقد كان هذا الرجل أطيب مما يجب . وأصلح ما يجب . وكان يعطى النقود لكل مسكين يقابله فى الطريق . ولذا كنت أعتقد أن وراء هذه المظاهر قصة مريبة .

وكانت « الصالونات » على الخصوص تفيض بهذه التنديدات .

فقالت سيدة عجوز ، من المشتركات فى صحيفة « اللواء الأبيض » هذه الملاحظة البالغة العمق :

— أنا لست غاضبة مما حدث . فهو درس للبونابرتيين !

وهكذا تبدد هذا الشبح الذى كان يدعى المسيو مدلين فى مدينة « م » . ولم يبق وفياً لذكراه فيها إلا ثلاثة أشخاص أو أربعة ، ومنهم البوابة العجوز .

وفى مساء ذلك اليوم نفسه كانت هذه العجوز الوقور جالسة فى حجيرتها ، مهمومة منكودة . وكان المصنع قد أغلق أبوابه طول النهار وأقفر الشارع كله . وليس فى المبنى إلا الراهبتان الساهرتان على جثة فانتين .

وقرابة الساعة التى اعتاد فيها المسيو مدلين العودة ، نهضت

البوابة بحركة آلية ، وتناولت مفتاح حجرة المسيو مدلين من الدرج ، والشمعدان الذى كان يستخدمه كل مساء للصعود إلى حجرته ، ثم علقت المفتاح على المسمار حيث تعود أن يجده ووضعت الشمعدان بجواره ، كأنها تتوقع قدومه . ثم جلست على مقعدها واستغرقت فى التفكير . وكانت هذه العجوز الطيبة قد صنعت هذا كله من غير وعى .

ولم تفق من شرودها إلا بعد أكثر من ساعتين وصاحت :

— وى ! يا إلهى ! لقد وضعت مفتاحه على المسمار !

وفى هذه اللحظة انفتح زجاج حجيرتها ، وامتدت يد من الفجوة وتناولت المفتاح والشمعدان ، وأشعلت الشمعة من شمعتها الموقدة .

ورفعت البوابة عينيها وظلت فاغرة الفم ، ووقفت فى حلقها صرخة مكتومة . فقد عرفت هذه اليد ، وهذه الذراع ، وكم الردنجوت .

كان هو المسيو مدلين .

ومرت بضع ثوان قبل أن تتمكن من الكلام ، وأخيراً صاحت :

— يا إلهى يا سيادة العمدة . كنت أحسبك ...

وتوقفت ، لأن بقية الجملة تنافى ما فى أولها من الاحترام . فجان فلجان كان دائماً فى نظرها سيادة العمدة .

وأتم هو ما جال بخاطرها . قال :

— فى السجن ! كنت فيه ولكنى حطمت أحد قضبان النافذة

وقفزت من فوق أحد الأسطح . وها أنا ذا . سأصعد إلى حجرتى . اذهبى أنت فأحضرى لى الأخت سمبليس . فلابد أنها بجوار تلك المسكينة .

وصدعت العجوز بالأمر بكل سرعة . ولم يوصها بالكتمان ، فقد أيقن أنها حفيظة عليه أكثر من نفسه .

وصعد السلم المفضى إلى حجرته . ولما وصل إلى أعلى ، ترك الشمعدان على آخر درجات السلم ، وفتح الباب برفق ، وأغلق المصراع الخشبى لنافذته ثم عاد فأخذ الشمعة ودخل الحجرة . ولم تكن لهذا الاحتياط جدوى ، لأن نافذته تطل على الشارع .

وألقى فيما حوله نظرة على منضدته وكرسيه وسريره الذى ظل على حاله منذ ثلاثة أيام ، وكانت قد تولت البوابة تسويته . كما نظفت الحجرة وألقت الرماد ووضعت على المنضدة الكعبين الحديدين للهراوة وقطعة الأربعين صلداً . وتناول ورقة كتب عليها : « هذان هما كعبا هراوتى ، وقطعة الأربعين صلدياً المسروقة من جرفيه الصغير ، كما ذكرت فى محكمة الجنايات » . ووضع الورقة تحت هذه الأشياء بحيث لا يخطئها الداخل إلى الحجرة . وأخرج من صوانه قميصاً قديماً مزقه ولف فيه الشمعدانين الفضيين . فى أناة وروية . وتناول كسرة خبز أسود فقضم منها قضمة . ولعلها كانت كسرة خبز السجن التى حملها معه عند هروبه .

وسمع طرقتين صغيرتين على الباب ، فقال :

— ادخل .

وكانت الداخلة الأخت سمبليس ، شاحبة ، حمراء العينين ، والشمعة التى تحملها ترتجف فى يدها لفرط تأثرها بما شهدته فى يومها ، مما جعل الراهبة ترتد امرأة باكية مرتعدة .

وكتب جان فلجان بضعة أسطر على ورقة أعطاها للراهبة وهو يقول لها :

— أعط هذه الورقة لسيادة الخورى (القس) . وفى وسعك قراءتها .

فقرأت فيها : « أرجو سيادة الخورى أن يرعى كل ما تركته هنا . وأن يتفضل بأداء نفقات قضيتى ودفن المرأة التى ماتت اليوم . ووزع الباقى على الفقراء » .

وأرادت الراهبة أن تقول شيئاً ، ولكنها لم تقدر إلا على الهمهمة بأصوات غير مفهومة . ثم تمكنت أن تقول :

— ألا يريد سيادة العمدة أن يلقى نظرة أخيرة على هذه المسكينة؟ فقال :

— لا . فهم فى أعقابى . ولو قبضوا على فى حجرتها لأزعجها هذا .

ولم يكد يتم عبارته حتى علت ضجة فى السلالم ، وسمعا صوت خطوات تصعدها ، وسمعا البوابة العجوز تقول بأعلى صوتها الثاقب :

— يا سيدى الطيب . أقسم لك بالله العظيم ، أنه لم يوجد هنا

أحد طول النهار ، وطول المساء ، وأنى لم أغادر الباب .

وأجابها رجل :

— ومع هذا هناك ضوء فى هذه الحجرة .

وعرفا صوت جافير . وكان باب الحجرة إذا انفتح أخفى زاوية الجدار الأيمن . فنفخ جان فلجان الشمعة ووقف فى ذلك الركن . وركعت الأخت سمبليس أمام المنضدة . وانفتح الباب . ودخل جافير . وسمعت همسات عدة رجال واحتجاج البوابة عليهم فى الدهليز :

ولم ترفع الراهبة عينيها ، وواصلت صلاتها . وكانت الشمعة الصغيرة فوق المدفأة ولا تلقى إلا أقل الضوء . ولمح جافير الراهبة ووقف مرتبكاً .

كانت قرارة نفس جافير تنطوى على احترام كل سلطة وإجلال الدين بلا حدود ولا قيود ، لأن السلطة الدينية هى أعظم السلطات . وهو نفسه متدين صارم . والكاهن فى نظره روح منزه عن الخطأ ، والراهبة روح بلا خطيئة . ولا يمكن أن تقول إلا الحق . ولذا كان أول ما خطر له عندما رأى الراهبة أن ينسحب . ولكن فى الوقت نفسه كان هناك واجب آخر عليه أداءه . ولذا بقى لكى يسألها على الأقل . وكانت الأخت سمبليس كما يعلم جافير لم تكذب فى حياتها قط ، ولذا كان يجلها بصفة خاصة . وسألها :

— أختى المقدسة . أأنت وحدك فى هذه الحجرة ؟

وكاد يغشى على الراهبة لحظة السؤال ، ولكنها رفعت عينيها وأجابته :

— نعم .

— سامحينى إذا اقتضانى واجبى أن ألح عليك . ألم ترى هذا المساء رجلا هارباً منا نبحث عنه ، اسمه جان فلجان . ألم تريه ؟

— لا .

وكذبت مرتين ، بلا تردد ، وبسرعة . فقال جافير :

— عفوك إذن .

وانسحب وهو يحييها بانحناءة عميقة . واحتسبت الأكذوبتان حسنتين للراهبة فى السماء ! أما جافير فلم يخامره فى صدقها شك ، مع أنه رأى الشمعة التى أطفأها جان فلجان ترسل بقية من دخانها فوق المنضدة .

وبعد ساعة كان رجل يمشى عبر الأشجار والضباب فى اتجاه باريس . وكان هذا الرجل جان فلجان . واتضح من شاهدة عابرى سبيل صادفاه أنه كان يحمل صرة ، وعليه سترة عمال . فمن أين حصل عليها ؟ لا أحد يدرى . ولكن عاملا كان قد مات فى المستوصف منذ ثلاثة أيام ولم يترك من متاع الدنيا إلا هذه السترة . ولعلها هى هذه التى يلبسها جان فلجان .

وبقيت كلمة أخيرة عن فانتين :

إن الأرض أمنا جميعاً ، وقد أعيدت فانتين إلى هذه الأم .

وظن الخورى (القس) أنه خيراً صنع باحتجاز أكبر مبلغ من المال للفقراء . وقال فى نفسه إن الأمر يتعلق بنزيل ليمان سابق وفتاة عمومية ! ولذا اختصر مراسم دفن فانتين إلى أقصى حد ، ودفنها فى المقبرة العامة ، ولم يخصها بقبر لائق كما طلب المسيو مدلين. بل ثوت بين الفقراء والمعدمين . ولكن من حسن الطالع أن الله يعرف أين يجد الأرواح . واختلطت عظام فانتين بعظام سائر المعدمين : وهكذا تشابه قبرها مع فراشها فى الحياة الدنيا .

* * *





عزيزى القارئ ..

فى الكتاب رقم ٨ من الإصدار الجديد لسلاسل (كتابى) قدمت لك الجزء الأول من ملحمة (فيكتور هيجو) الخالدة (البؤساء). ثم قدمت لك الجزء الثانى منها فى الكتاب رقم ١١. واليوم أقدم لك فى هذا الكتاب الذى بين يديك (رقم ٢٠) الجزء الثالث من أول ترجمة (مصرية) كاملة أمينة لهذه الملحمة التى صدرت بالفرنسية فى ٣ أبريل عام ١٨٦٢، والتى ترجمت قبل نشرها بالفرنسية إلى ٩ لغات أخرى، فصدرت فى وقت واحد فى كل من عواصم فرنسا، وإنجلترا، وبلجيكا، والولايات المتحدة الأمريكية، وأسبانيا، وألمانيا، وروسيا، وإيطاليا.. وأحدث صدورها فى كل بلد منها ضجة كبرى باعتبارها حدثًا أدبيًا عظيمًا. ومنذ ذلك التاريخ ترجمت إلى ١٢ لغة أخرى، لم تكن من بينها ـ مع الأسف ـ اللغة العربية. وإذا كانت قد ترجمت منذ سنوات إلى اللغة العربية، فقد كان ذلك فى بيروت بلبنان. أما فى مصر فلم تترجم ترجمة كاملة إلا الآن، فى هذه الترجمة التى بين يديك. وبهذه المناسبة تجدر الإشارة إلى أن الترجمة التى صدرت منذ سنوات بقلم شاعر النيل حافظ ابراهيم كانت مجرد (تلخيص) فى نحو (عُشر) الحجم الكامل للرواية أو أقل، إذ بلغت صفحاتها ١٩١ صفحة، فى حين أن الترجمة الكاملة لا تقل عن ألفى صفحة (٢٠٠٠)!

وكانت (البؤساء) أول رواية طويلة يكتبها (هيجو) بعد نحو ٣١ سنة من روايته الأولى المشهورة (أحدب نوتردام). و(البؤساء) هى قصة القرن التاسع عشر فى فرنسا، وتوقعات المؤلف للمستقبل فيها، وهى تظهر إلمام (هيجو) الكبير بحقائق الحياة والتاريخ، ومدى اتساع رقعة خياله وقدرته الروائية، مما أعطى الرواية جاذبية لا تقاوم لدى القراء فى جميع أنحاء العالم. وكما ذكرت لك فى نبذة غلاف الجزء الأول، فإنها اقتبست للسينما نحو ١١ مرة، بين عام ١٩٠٩ وعام ١٩٧٨، فى كل من فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا وإنجلترا ومصر، حيث اضطلع ببطولة الفيلم المصرى المأخوذ عنها النجم الكبير فريد شوقى.

فتعال معى نواصل قراءة الرواية، من حيث وقفنا فى نهاية الجزء السابق (رقم ١١).

حلمى مراد



قرش جنيه